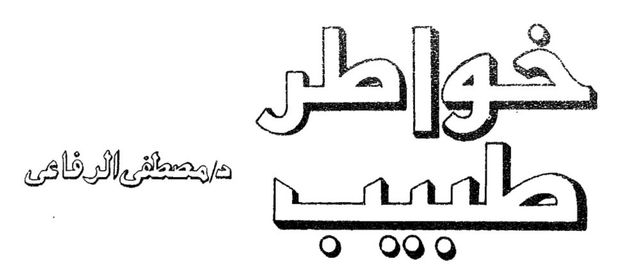


توزيع
منشأة المعارف بالأسكندرية
ت ٤٨٣٣٣٠٢

خواطر طبيب

تأليف
الأستاذ الدكتور
مصطفى الرفاعى

١٩٩٥

توزيع منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

إهـــداء

إلى زمـلاء الطفولة والصبـا والشباب

إلى زملاء أجمل حقبة فى حياتنا

إلى زمـلاء روضة أطفال المنصورة ، والمنصورة الابتدائية ،

والمنصورة الثانوية والزقازيق الثانوية ، وكلية طب الاسكندرية

لقد عشنا معاً ، ثم فرقتنا الأيام

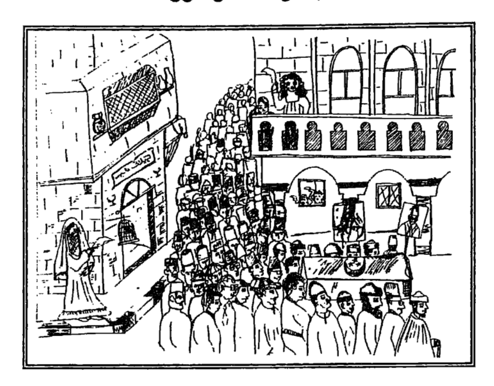
ولكنى لازلت أعيش معكم وبكم

اليكـــم

أهـدى هذا الكتاب

مصطفى الرفاعى

جنازة سعد زغلول



أغسطس سنة ١٩٢٧ - لم أبلغ الثالثة من العمر كيف أمكننى أن أتذكر ذلك ! يقول أصدقائى أن عندى ذاكرة فوتوغرافية .

والدتى تبكى بكاءاً حاراً والناس فى بكاء ونحيب .

وأنا واقف بجانبها فى شرفة كبيرة تُطل على شارع رئيسى فى مدينة بورسعيد ، حتى بائع الچيلاتى على الرصيف المقابل يبكى ، أما ببغاؤه الكبير فيتحرك بعصبية داخل قفصه وتصدر عنه أصوات عالية مزعجة .

وأرفع رأسي وأنظر الى الشارع بين فجوات الشرفة فأرى جنازة مهيبة والنعش مُغطى بعلم مصر الأخضر ، وأمامه رجل يحمل صورة كبيرة لسعد زغلول ، صورة مألوفة لى ، وأعرفها تماماً فهى فى كل مكان ، حتى غطائى الصغير على السرير ، مطبوع على نسيجه صورة سعد زغلول .

يتقدم الجنازة شيوخ معممون مع رجال الدين المسيحى بملابسهم السوداء ورجال وسيدات واطفال .

ويصيح بائع الجيلاتي القريب الى قلبى « نحن أيتام من بعدك يا سعد» . لقد رثى سعد زغلول شعراء الوطن العربى من مشرقه الى مغربه .

ولكن لم أجد وصفاً يصف ما أصاب مصر من هلع كما وصفها شاعر لبنان الأخطل الصغير ، « بشارة الخورى » :—

قالوا دَهتْ مِصرُ دهياء فقلت لهم	هل غُيّضَ النيل أو هل زلزل الهرم ؟
قالوا أشد وأدهى قلت ويحكمُ	إذا لقد مات سعد وانطوى العلم
لما لا تقولون أن العرب قاطبة	تيتموا كان زغلول أباً لهم

⌘ ⌘ ⌘

لقد وحّد سعد زغلول الشعب المصرى فجعله سَدّاً منيعاً أمام الاستعمار ، وجمّع الأمة العربية كلها ، لا جدال فى ذلك . فقد كان زعيماً مصرياً كما كان زعيماً عربياً .

ويستطرد بشارة الخورى :

إن أنّ ، أنّتْ له بغداد وانخلعت	له دمشقَ وراحَ البيتُ يلتطمُ
القائل الحق لا تُثْنى أعِنته	والواحد الفرد فى أثوابه أمم
لطف المسيح مذاب فى محاجره	وعزم أحمد فى جنبيه يحتدم
صلّى عليه النصارى فى كنائسهم	والمسلمون سعوا للقبر واستلموا
من مبلغ مصر عنّا ما تكابده	إن العروبة فيما بيننا ذِمم

⌘ ⌘ ⌘

إن سعد زغلول هو أول زعيم عربى فى العصر الحديث جمّع الأمة العربية .

– وتمر سنوات ، سنة أولى المنصورة الابتدائية . المدرسة العريقة التى بناها محمد على الكبير منذ أكثر من مائة وستون عاماً ، ولا زالت إلى الآن شامخة بلونها الأحمر الداكن ، الذى لم يُسقط منها الزمن ولا الزلزال حجراً واحداً – لا تزال قائمة تصارع الزمن ، كم خرّجت من أجيال ملئوا مصر علماً وثقافة – لقد تخرّج منها خالى وكان بالقسم الداخلى ، كما تخرّج منها خال والدتى ولم يستمر فى التعليم بعد هذه المرحلة وكان يجيد اللغة الانجليزية ، وكان يردد :

« كنا نَدْرِس كل العلوم باللغة الانجليزية الحساب والتاريخ والجغرافيا .....

فى سنة أولى لازلت أتذكر الفصل والزملاء ، سيف السمنودى الذى تخرج معنا فى طب الاسكندرية ، ولا يزال يعمل فى منصب كبير بالسعودية ، وحسن حسنى وتخرج فى طب القاهرة وله مستشفى مشهور فى القاهرة ، وحسان مصطفى تخرّج فى كلية الزراعة وهاجر الى الولايات المتحدة .

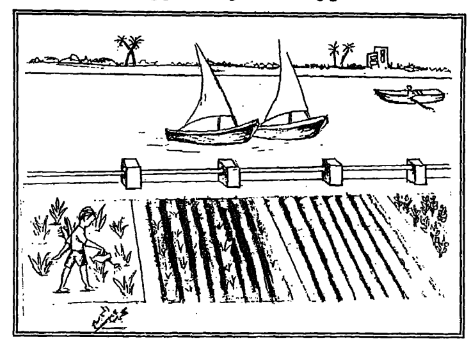
– مدرس اللغة العربية يسألنى « أين مات سعد زغلول ؟» .

– مات فى بورسعيد – أقعد أنت ما تعرفش حاجة – مات فى القاهرة .

– « لا هو لا يعلم الحقيقة» . فقد رأيت بعينى جنازته .

فلم أكن أدرى أن هذه الجنازة كانت جنازة رمزية ، وأن جنازة سعد زغلول شيعت فى كل مدينة مصرية .

روضة أطفال المنصورة



بدأت تعليمى فى روضة أطفال المنصورة - فوالدى كان يعمل مهندساً فى مشروعات رى المنصورة وكانت المدرسة تشغل قصراً أبيضاً كبيرا به حديقة تُطل على نهر النيل - وكانت المراكب الشراعية الكبيرة تمر بسرعة أمامنا والمراكب الصغيرة تضرب الماء بمجاديفها بصورة منتظمة كدقات الساعة ...

كان جمال الطبيعة يفوق الخيال والحديقة بها زهر وورد وأشجار باسقة وعنب متسلق على مكعب طويل .

وكان لكل طفلين حوض به زراعة ويشرف علينا مدرس فلاحة البساتين .

وأتذكر أننى كنت أزرع زهور البازلاء أنا وزميلى على شافعى ، وكان الأطفال كثيراً ما يعتدون على حوضنا ويقطفون الزهور مما سبّب كثيراً من المشاجرات ، وكنت لا أتردد فى الاشتباك مع من يعتدى على زراعتى مما سبّب كثيراً من المشاكل مع المدرسات . ويمتد الشجار الى الفصل وأتذكر أن مدرسة الحساب ضربتنى بمسطرة

حادة على رأسى فشعرت بألم شديد ولكن لم أبكِ ، وعندما وضعت يدى على موضع الألم فوجئت بوجود دماء ساخنة على أصابعى – لم أبكِ ففى الفصل بنات ولم أقبل أن أضعف أمامهن ، اضطربت المدرسة وغسلت رأسى وحاولت أن ترضينى بكافة الوسائل .

وعندما ذهبت والدتى تشكو إلى ناظرة المدرسة قالت « الولد شقى وعنيد ، ولكن المدرّسة مخطئة وسوف تُعاقب » ولم تجرؤ مدرسة الحساب ولا غيرها أن تقترب منى بعد ذلك اليوم وقد استغللت هذا الموقف دائماً لصالحى » .

من وجهة نظرى لم أشعر أننى أخطأت فلم أعتدِ على أحد ، ولكنى رددت الاعتداء على أرضى – أما مدرس فلاحة البساتين فقد سمعته يقول « الولد ده شجاع ويكفى أنه لم يبكِ» .

وأصبح ذلك الوضع هو مبدئى فى الحياة فلا أتذكر أننى اعتديت على حقوق أحد ، ولكن لم أقبل مطلقاً أن يعتدى أحد على حقوقى مهما كانت قوته ومهما كان بأسه .

وكان بالمدرسة فرقة للكشافة وكنت أنا قارع الطبلة وهو مركز مرموق بين الأطفال ، وحاولت المدّرسة تغييرى بالزميل مصطفى نور وكان هادئاً وديعاً ، أما أنا فلم أكن مفضلاً لدى المدرسات ، ولكنه لم يستطيع أن يجيد قرع الطبلة مثلى فاضطرت المدّرسة الى ارجاعى الى موقعى ، فشعرت بلذة الانتصار .

وكانت للمدرسة سيارة كبيرة تأخذنا الى المدرسة وتعيدنا للمنزل ، وكان أهم شخصية فى السيارة هو « عم حبشى» وهو رجل سودانى كبير السن يحملنا من وإلى السيارة وكان شخصية محبوبة جداً خصوصاً من أولياء الأمور .

أتذكر من الزملاء سيف السمنودى ورفعت السيد على وقد تزاملنا حتى تخرجنا فى كلية طب الاسكندرية ومصطفى الأروادى– وعبد الحميد رياض الجمل الذى لايزال يعمل بالمنصورة وهو محامٍ مشهور .

حدث ذلك سنة ١٩٣٠ وكان الشعور الوطنى على أشده – صدقى باشا يحكم ولا أحد يؤيده – كل الشعب يؤيد الوفد حتى موظفى الدولة كانوا يجاهرون بذلك .

أتذكر أن ناظرة المدرسة كانت تتكلم مع إحدى المفتشات فأشارت الىّ والى بعض الأطفال « دول كلهم معانا أما هذا الطفل ففى الجهة الأخرى » وكان والد هذا الطفل معروفاً عنه أنه يؤيد صدقى باشا .

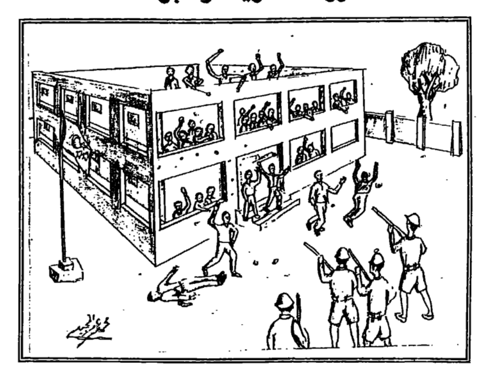
مرت بى كل هذه الذكريات وكأنها عادت إلىّ من وادٍ سحيق عندما مررت أمام المدرسة سنة ١٩٥٣ وكنت أزور أحد الزملاء بمستشفى المنصورة وهى قريبة من المدرسة .

كان ذلك فى فصل الخريف وكان القمر بدراً ، وقفت برهة من الزمن أنظر الى المدرسة – المدرسة شامخة كما هى بلونها الأبيض الشاهق وحديقتها الجميلة ولازالت زهور البازلاء تفوح برائحتها الذكية، تذكرت هذه الأيام السعيدة التى قضيتها فيها ، يا ليتها تعود ولكن هيهات للماضى أن يعود .

كتبت ما كتبت وأنا أدوّنها الآن اعتماداً على الذاكرة :

لو أعود اليوم طفلاً	ويزول الوهم عنى
وأرى الروضة تدنو	وعبير الأمس منى
يوم كان العيش حلواً	بالأمانى والتمنى
أيها الطير توقف	وأسكن الدوح وغنى
أيها الريح تمهل	وأعبر الغيب وخذنى
أيها البدر تألق	وأحضر الماضى لعينى
فتراني وعليّا	قد تعلقنا بغصن
كم زرعنا الحقل حبّا	وتغنينا بلحن
وغبار الأرض يكسونا	بثوب وبلون
ودماءٍ فوق رأسى	وجراح أثقلتنى
هذه الجنة دارى	فلماذا أخرجتنى؟

المنصورة الثانوية نوفمبر ١٩٣٥



ثورة ، اضراب – نحن أبناء رجال ثورة سنة ١٩١٩.

الدستور أو الثورة ، الاستقلال التام أو الموت الزؤام – تسقط انجلترا – النحاس زعيم الأمة .

بلال زعيم طلبة مصر – وكان طالباً بكلية الطب – محمد توفيق السيد زعيم طلبه المنصورة . كان الملك فؤاد على عرش مصر .

وكنت فى السنة الأولى وأتذكر من الزملاء عبد الحميد الجمل الذى أصبح محامياً مشهوراً فى المنصورة وكان ولا يزال وفدياً .

ومسعد سلام الذى أصبح طبيباً فى القاهرة ....

وكنا صغاراً لا تتجاوز أعمارنا الحادية عشرة – وتوفيق السيد كان فى السنة الثالثة « تقابل السنة الأولى الآن» وكان قصير القامة ، شخصية قوية ، إذا تكلم صمت الجميع ، زعيم بلا جدال .

- « ارجع يا توفيق ، البوليس ناوى لك على نية وحشة ، مستقبلك يا ابنى» .

- لا يا أستاذ ، نموت وتحيا مصر ، الدستور أو الثورة .

يتجمع تشكيل كبير من البوليس المسلح بالعصى والدروع والبنادق خارج المدرسة فتزيد ثورة الطلبة ويتسلحون بالحجارة والمقاليع وفروع الأشجار وخراطيم المياه ويتوتر الموقف . نحن الصغار نساعد الكبار بجمع الحجارة وفرد خراطيم المياه . يهجم تشكيل من البوليس ويدخل حوش المدرسة من الباب الرئيسى . تزداد ثورة الطلبة - كيف يدخلون المدرسة لن نمكنهم من ذلك .

يتصدى مئات من الطلبة بقيادة توفيق السيد لرجال البوليس ويمطروهم بوابل من الحجارة ، ثم يهجمون عليهمم بالعصى ، فيفر البوليس أمامهم ويقع أحد العساكر فى الأسر ويستولى الطلبة على سلاحه .

تنضم مدرسة الصنايع الملاصقة ، للاضراب « يحيا اتحاد الطلبة» يعود تشكيل أقوى من البوليس المسلح - يضرم الطلبة النار فى المبنى الخارجى بين المدرسة الثانوية والصنايع لإعاقة تقدم البوليس .

يقاوم الطلبة التشكيل الجديد بشجاعة وفدائية ، يطلق البوليس الرصاص من بنادق لى انفليد « بنادق ميدان» - يتساقط الطلبة هنا وهناك - نهرب نحن الصغار من فوق السور الخلفى للمدرسة الى العزب المجاورة ، ويطاردنا البوليس . يخفينا أحد الفلاحين فى عشة الفراخ فوق سطح منزله ويصُّر أحد العساكر على دخول المنزل ، ويصُّر القروى الشجاع على منعه فلا يدخل ، فمصر كلها وراء الوفد ، ومصر كلها وراء ثورة الطلبة .

تمر علينا الساعات وكنا ثلاثة صغاراً ولم نعد لمنازلنا إلا بعد الغروب ، وقد ألبسنا الفلاح الشهم الجلاليب فوق ملابس المدرسة بالبنطلون القصير .

أما ما حدث لأولياء الأمور فلا يمكن وصفه ، هلع ، جزع ، جرّى هنا وهناك من المستشفى الى قسم البوليس بلا طائل . وصلت الى المنزل فى المساء فعاتبنى والدى رحمه الله « أنا قلت لك لا تشترك فى هذه المظاهرات» .

لِمَ تمنعنى عن ذلك؟، وقد كنت تحكى لى وتفتخر بأنك اشتركت فى ثورة سنة ١٩١٩ ! مات شطا محمد شطا داخل المدرسة وكان فى السنة الرابعة – أصابته رصاصة فى رأسه ، ومات صديقى وزميلى على حسين حسن وكان والده قاضياً وكان عمره إحدى عشرة سنة ، مات بعد أيام فى المستشفى بعد اجراء عملية جراحية من رصاصة أصابته فى بطنه وهو داخل الفصل ، وكان هادئاً وديعاً ولا أعتقد أنه غادر الفصل .

أطلق جندى عليه النار داخل الفصل « قلت له ما تضربنيش قام ضربنى » ذهبت لزيارته بالمستشفى وكانت محاطة بالبوليس . امشى يا ولد من هنا فبكيت – مات ولم أره .

ثم مات الشاذلى بعد حوالى شهر وكان طالباً بمدرسة الصنايع وكان مصاباً برصاصة فى العمود الفقرى .

أصرّ الطلبة على عمل جنازة كبيرة للشاذلى فوافق البوليس على أن تكون جنازة صامتة ، فوعدهم بذلك توفيق السيد ونفذ وعده .

أما عدد الجرحى فكانوا كثيرين ، اذكر منهم عادل البتانونى ، وكان من زعماء الطلبة وكان قد أصيب فى رأسه ، وحضر إلى المدرسة بعد شفائه وقابلناه بالتصفيق فى طابور الصباح .

وابراهيم الجمال ، وشفى من اصابته وقد زاملته فى طب الاسكندرية وعمل طبيباً فى الاسكندرية . أما عدد المقبوض عليهم فكانوا كثيرين .

ما هذه القسوة ! وما هذا العنف ! طلبة أبرياء هم طليعة شعب

مصر يطالبون بالدستور فتُقْتَحم مدرستهم ويقتلون برصاص بنادق الميدان .

هل حكم على هذا الشعب بالهوان الى الأبد ، عندما يطالب بحقه الدستورى وحقوقه الوطنية .

أما فى القاهرة فقد سقط شهداء من طلبة الجامعة قتلهم البوليس وكان يوجد انجليز بين قوات البوليس المصرى .

فاستشهد عبد الحكم الجراحى وعبد المجيد مرسى وجُرِحَ ابراهيم شكرى وهو الزعيم الوطنى الكبير الذى مازال يعطى إلى الآن .

قابلت توفيق السيد بعد هذا التاريخ بحوالى عشرين عاماً وكان يعمل معاون ادارة بالمنصورة وكان نشيطاً متفانياً فى عمله ، وقد توفى رحمه الله فى ريعان شبابه .

أما الدكتور محمد بلال رحمه الله فلم أقابله إلا فى سنة ١٩٨٥ فى ندوة فى حزب الوفد فى المحلة الكبرى أى بعد خمسين عاماً من ثورة سنة ١٩٣٥ -ومكثنا برهة من الزمن نتذكر هذه الأيام المجيدة من تاريخ مصر - تاريخ ثورة الطلبة التى قادها زعيم شباب الوفد محمد بلال الطالب بكلية الطب .

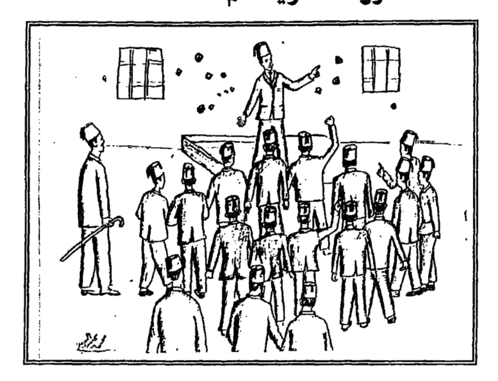
نجحت ثورة الطلبة سنة ١٩٣٥ وعاد الدستور .

وتمر السنون وأذهب الى المنصورة الثانوية لعمل طبى فأرى المدرسة وأرى جدرانها ، وقد حرص المسئولون على ترك آثار الرصاص فى الجدران كما هى بلا ترميم كشاهد على الجريمة البشعة التى طالما اقترفت فى حق هذا الشعب العظيم .

وذهبت الى النصب التذكارى للشهداء بالمدرسة وقرأت الفاتحة على أرواحهم الطاهرة .

رحم الله شهداء المنصورة ، ورحم الله شهداء مصر الذين روّوا بدمائهم الشجرة التى لا تُرْوَى إلا بالدماء ، شَجرة الحريّة .

المنصورة الثانوية عام ١٩٣٨ - ١٩٣٩



اضراب - يسقط وعد بلفور - تسقط انجلترا ، فلسطين عربية - لا انجليز ولا يهود ، يسقط الاستعمار ، يتجمع الطلبة - يرتقى المكان الخطباء على منصة عالية ، خلف المنصة لاتزال آثار الرصاص على الجدران تذكرنا بالجريمة التى ارتكبت فى هذا المكان سنة ١٩٣٥ .

- «اتركوهم على راحتهم لا أريد مشاكل» - هكذا قال ناظر المدرسة الحصيف .

خطب من نار تدل على ثقافة عالية ووعى سياسى كبير ، ولغة عربية سليمة - أين ذهب هذا الجيل ؟ أين اللغة العربية السليمة ، ويتوالى الخطباء ثم يرتقى المنصة الشعراء - نعم كان بالمدرسة شعراء على مستوى عالٍ ، أذكر الطرشوبى وقد ألقى قصيدة بليغة ، أذكر منها :

إن اليهود كأفعى حيثما حلّت : بأرض يسيل السم من فيها .

تقابلت مع الطرشوبى بعد ذلك بسنوات طويلة فى القطار وكان يعمل طبيباً بالمنصورة . وكان من الشعراء أيضاً محمد كفافى – وكانت له قصيدة طويلة فى مدح الرسول ﷺ ، وهى نهج للبردة على وزن قصيدة البوصيرى ، وكان يكتب قصصاً شعرية فى مجلة المدرسة وقد أصبح فيما بعد أستاذاً للغة العربية بكلية الآداب– جامعة القاهرة .

ومن الشعراء أيضاً عبد الحميد الجمل – وكان يكتب قصائد شعرية ومقالات أدبية على مستوى لغوى رفيع بمجلة المدرسة – ولايزال يعمل بالمحاماة وله مكتب مشهور بالمنصورة .

وكان جمال الطبيعة فى المنصورة يلهب الخيال ، ويجود بالإلهام ، وينمى مَلَكَة الشعر فظهر فيها شعراء مجيدون ، منهم الدكتور / ابراهيم ناجى صاحب الأطلال التى تغنت بها سيدة الغناء العربى/ أم كلثوم ، والمهندس/ على محمود طه صاحب الجندول الذى تغنى به محمد عبد الوهاب .

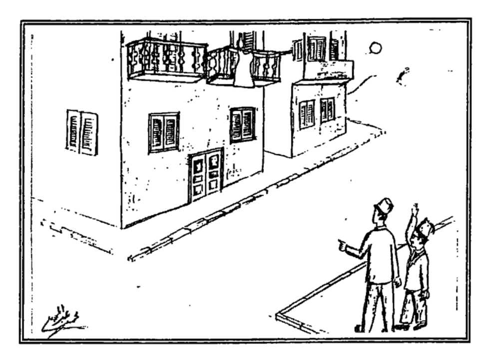
كما ظهر بها الشاعر الرومانسى الرقيق محمد عبد المعطى الهمشرى وهو من جيل سابق لجيلنا وقد مات رحمه الله فى ريعان شبابه .

أعود فأقول أين ذهب هذا الجيل وأين ذهبت هذه الثقافة ؟

كنا ولا نزال صغاراً نعيش فى مشاكل مصر ومشاكل الوطن العربى – شعرنا بكارثة فلسطين قبل حدوثها وأحسسنا بما ارتكبه الانجليز من جرائم حتى سلّموا فلسطين الى اليهود .

أنظر ورائى الى هذه الأيام المجيدة ، ثم أنظر أمامى وأرى المستقبل مشرقاً بإذن الله ، وإن الصحوة آتية لا محالة ، لإصلاح ما أفسده الدهر وما أفسده الانجليز وغير الانجليز .

محمــود العســال



الزقازيق الثانوية - وفدى كعائلته العريقة - النحاس زعيم الأمة يقود الطلبة أحياناً فى الاضرابات - أكبر منا بسنوات كثيرة ، لا يهتم كثيراً بالدراسة ، شخصية مرحة لا تراه إلا ضاحكاً متهكماً على أى شيئ حتى نفسه - لو اتجه الى التمثيل لنبغ مثل الريحانى وربما فاقه - مسرحه الحياة والممثلون أفراد حقيقيون .

شكّل وزارة من الطلبة ، هو الرئيس ، وزميلنا الطوبجى وزيراً للحربية أما وزير المعارف فهو « أخيب» طالب فى الدفعة - وأصدر وزير المعارف قرار بانجاح جميع الطلبة الراسبين ، وتمادى محمود فعلق كل هذا بلوحة الاعلانات .

- يفصل أعضاء الوزارة لمدة أسبوع - هكذا حكم ناظر المدرسة ، وهكذا الحياة عند محمود هزل فى هزل .

أما مقالبه الهزلية فلم يسلم منها أحد .

خارج المدرسة كان له أصدقاء كثيرون ، أطباء ، ضباط ، محامون يسعدون بمصاحبته .

أما صديقه الحميم الذى أوقعه سوء حظه فى مصادقته ، فهو ناظر لمدرسة أهلية متواضعة للأطفال .

كان الاستاذ سعد قصير القامة جداً ونحيف البنية وكان نظره ضعيفاً ويلبس نظارة سميكة ، تعرف به فى المقهى فكلاهما يلعب الشطرنج ولكن الاستاذ كان يتفوق عليه .

سرق محمود من جيش الاستاذ طابية وأخفاها فلما تنبه الاستاذ لذلك « فين الطابية ؟» . أنا أكلتها بالحصان » .

– كيف يأتى الحصان الى هنا ، كانت العساكر أكلته .

– « وأنا أعملك إيه إذا كانت عساكرك نايمة» .

ويستمر اللعب ، بالرغم من ذلك ينتصر الأستاذ .

يسير فى الليل على شارع البحر ، ويوهم الأستاذ أن هذه الفتاة الجميلة معجبة به. « إيه الى موقفها فى الشرفة لغاية الساعة ١٠ مساء والدنيا برد طبعاً مستنياك ومعجبة بصوتك» – ولم يكن فى الشرفة إلا فستان على حبل غسيل ، يقتنع الأستاذ فنظره ضعيف ، وإيه العمل ؟ غنى لها يا أخى « كلنا نحب القمر» وكان صوته رخيماً يشق سكون الليل ، وهكذا تستمر المسرحيات الحية ويتمادى محمود ، البنت ستأتى لمقابلتك غداً مساء .

ويتنكر زميلنا الصفتاوى فى صورة فتاة تلبس « ملاية لف» حتى لا يعرفها أحد» ويمثل دور الفتاة الولهانة بالأستاذ سعد ويتقابلا فى شارع البحر وورائهم عدد لا بأس به من المتفرجين ، وتستمر المسرحية الحية ليالى وليالى حتى يكتشفها الاستاذ فيقاطعنا لمدة شهور ، ثم لا يلبث أن يعود « أنتم ولاد كلب لكن دمكم خفيف...» فيقول له محمود:

– لما تموت يا أستاذ سأضع لك تخشينة فى النعش حتى لا تتحرك داخله ها ها ها ...

كان محمود جالساً على مقهى ، فحضر اليه صديقان فطلب لهما مشروباً وتكرر ذلك تانى يوم – حدد ميعاداً لمقابلتهما ثالث يوم وتعمد

أن يحضر متأخراً حتى يجلسا قبله – ولكنهما حضرا بعد جلوسه مباشرة فدفع لهما .

وفى اليوم الرابع – لم يجلس على المقهى – ولكنه دخل فى شارع جانبى لمراقبة المقهى ، فوجدهما مختبئين فى الشارع حتى يجلسا بعد جلوسه .

– امشى يا ندل انت وهو اجلسا قبلى حتى تدفعا لى .

وهكذا حكاياته لا تنتهى حيث تمتزج الحقيقة بالخيال .

قاد مظاهرة فى جنازة النحاس باشا رحمه الله –

« اشك الظلم لسعد يا نحاس» ثم هرب مع من هربوا من البوليس وأخذ يتباهى بما فعله .

استغل بعض الخبثاء ذلك ، وارسلوا له بمنزله من ادعى أنه من المباحث وأنه مطلوب القبض عليه ، فهرب من القاهرة واختفى عند أقاربه فى الريف – وشرب من الكأس الذى طالما سقاها لأصدقائه .

دخل الجامعة ولكنه لم يكمل دراسته الجامعية ، ولم يوفق فى الأعمال الحرة وفقد معظم ما يمتلكه – توظف بالتوجيهية وكانت ظروفه المادية قاسية – ثم تحسنت عندما عمل فى بعض التوكيلات بجانب عمله .

تزوج سيدة فاضلة وكوّن أسرة سعيدة فأكرمه الله بأبناء ناجحين. فى سنوات عمره الأخيرة كان مريضاً مرضاً خطيراً فى القلب ودخل العناية المركزة أكثر من مرة وكنت أتردد عليه حتى يتحسن . زرته فى فراش المرض فى أيامه الأخيرة.

« قلبى لا يزال يدق ولو أن دقه ملخبط، ازاى يعمل ٧٠ سنة ، بلا توقف ، غريبة – فاكر أما كنت تقول لى « إن دى أكبر معجزة» ها ها ها .

لازال فى العمر بقية وكويس إنى أنا شفتك .

لما أموت اكتب على قبرى « كان قليل الحظ ولكن كان إبن حظ» ها ها ها .

ومات بعد أيام رحمه الله .

زكى شالوم

يهودى من أبناء الزقازيق - صديق حميم لمحمود العسال ، تعرّفنا عليه وكان فى محنة .

هربت أخته الى فرنسا واعتنقت المسيحية وكانت فى القسم الداخلى فى مدرسة فرنسية فى القاهرة بها راهبات - وكان يقال أنها دخلت الدير فى فرنسا .

وكان والده شالوم الباز رجلاً فارع الطول ، ضخم البنيان ، أحمر الوجه يلبس جلباباً وطربوشاً . وكان يبكى على ابنته - وقد تعاطف معه كل الناس ، ولكن ابنته لم تعد ولم يعرف لها مكاناً .

وشالوم كان يمتلك صيدلية كبيرة وكان على درجة كبيرة من الثراء ، وزكى صديقنا كان شخصية محبوبة وكان يرأس نادياً متواضعاً للألعاب الرياضية وكنا نحن أعضاء فى هذا النادى .

وزكى كان يمتلك عربية فارهة « تيجوا تتفسحوا فى مصر » - طبعاً - ونعود فى المساء » .

ومات شالوم بدون أن يرى ابنته .

استمرت علاقتنا بزكى بعد أن دخلنا الجامعة .

وتأتى حرب فلسطين ، فيبيع الصيدلية ، ويعيش فى القاهرة ويعمل مندوب دعاية لإحدى شركات الأدوية ويزورنى مراراً فى الاسكندرية للدعاية وللصداقة - ثم اختفى فجأة فى منتصف الخمسينات .

فين زكى يا محمود ؟ « لا أعرف له مكان » .

يقال أنه ذهب الى فرنسا للبحث عن أخته ، ويقال أنه هاجر الى اسرائيل .

وتمر السنون وتأتى هزيمة ١٩٦٧ التى هزت مصر كلها .

راديو اسرائيل يبث سمومه .

أبشروا أيها المصريون لقد عيّنا لكم حاكماً لغزة وسينا ، مصرى مثلكم - زكى شالوم من الزقازيق ، أخيراً ظهر زكى !

وبعد عدة أسابيع فوجئت بمحمود العسال يدخل علىّ وهو فى حالة هلع وخوف .

« هل سمعت عن زكى شالوم حاكم غزة - هذا النذل «عايز يودينى فى داهية » - لقد حضر الى منزلى بالزقازيق بعض جنودنا الذين كانوا أسرى فى اسرائيل - أطلق زكى سراحهم «ماحدش يزعل دول ، أعطوهم كل متعلقاتهم ، دول بلدياتى من الشرقية » .

السلام أمانة سلموا لى على حبيبى محمود العسال بكفر النحّال بشارع الغندور بالزقازيق » .

« شوف ابن ..... يخونه العيش والملح - عاوز يخرب بيتى الله يخرب بيته » .

سأكلم ابراهيم الطحاوى « زميلنا وكان من الضباط الأحرار» واشرح له الوضع .

« فاكر لما كانوا حيمسكونى فى جنازة النحاس باشا» . أنا سأختفى عندك ولن أذهب الى الزقازيق مطلقاً حتى لا أقابل هؤلاء الملاعين ، ونبهت على أشقائى ألا يذكروا شيئاً عن مكانى » . فضحكت كثيراً - « وبتضحك كمان! » .

طبعاً أضحك - لا تخشى شيئاً - زكى انسان طيب وأصيل تربى فى مصر وهو لا ينسى العشرة ، والظروف السياسية أجبرته على الهجرة وبعد عدة شهور عزل اليهود زكى شالوم لتعاطفه مع المصريين .

محمد شهاب الدين غالى

زميلنا فى الزقازيق الثانوية - الأول دائماً .

حول من كلية طب القاهرة الى الاسكندرية ثم عاد الى القاهرة .

تعثر فى الدراسة ، كان مثلاً أعلى للطالب المُجدّ علماً وخلقاً ، ماتت والدته فجأة فتغيَّر حاله تغيراً تاماً وأصبح فى حزن مستمر - تخرجت فى الكلية - انقطعت أخباره عنى سنوات . وصلنى خطاب منه ، خطه مميَّز - « عاوز أقابلك ضرورى» .

سافرت الى القاهرة - وجدته قد تغيَّر تماماً وأصبح ساهماً زائغ النظرات - لم يتخرج إلى الآن ! .

خايف من الامتحان بكره - فاضل لى علم واحد الرمد فقط .

مكثت معه مدة طويلة وطمأنته وشجعته - فلم يبق إلا القليل وسوف تتخرج وتعمل معنا وسوف أكون بجانبك فنحن اخوان ، ولا أنسى أنك كنت الأول دائماً .

وتركته وأنا قلق .

فجعت عندما قرأت نعيه فى الأهرام ...

ليلة الامتحان أخذ أقراص منومة بكمية قاتلة فمات فى هدوء . لم يكتشف والده واخواته وفاته إلا صباح يوم الامتحان .

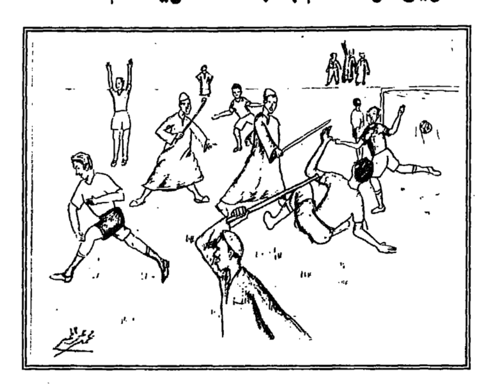
ان دراسة الطب دراسة طويلة شاقة ومجهدة .

لم يتحمل وفاة والدته ، وكان شديد التعلق بها ، ولم يستطع أن ينساها وعاش فى حزن وقلق دائم .

وكان الامتحان بالنسبة له رعب ورهبة ولم يستطع أن يواجهه فهرب من الحياة....

هناك حالات بعض الزملاء الذين تعثروا ولم يكملوا الطريق ، ولكن هذه المأساة تركت أثراً عميقاً فى نفوسنا فقد كان الأول علينا بلا منافس .

فريق كرة القدم بطب الاسكندرية عام ١٩٤٦



كانت كلية طب الاسكندرية تحصل على المركز الأول فى البطولة العامة للألعاب الرياضية لجامعة فاروق الأول لعدة سنوات ، مما أثار حفيظة باقى الكليات - ولكن فريق كرة القدم بالكلية لم يكن فى المقدمة . ذهبنا لملاقاة الفرق الرياضية لكلية الزراعة وكان مقرها دمنهور يومىّ الخميس والجمعة .

انتصرنا كالعادة فى جميع المباريات وبقيت مباراة كرة القدم لكى نلعبها الساعة ٣ يوم الجمعة وكان الملعب وسط المدينة وكان فريق كلية الزراعةواثقاً من فوزه ففيه اثنان من كبار لاعبى الأندية فضلاً عن فريق قوى متجانس .

« اكسبوا أنتم اللعبات ، واحنا حنسحقكم فى الكورة» .

أما فريق كلية الطب فأفراده غير مشهورين ولكنهم على درجة عالية من اللياقة البدنية .

ورئيس الفريق سيف السنمودى ، ربما يكون المشهور - وسيف من المنصورة ، وهو زميل الطفولة والشباب - كنا نلعب الكرة سوياً فى فريق الصغار فى المنصورة الثانوية ولعبنا معاً فى فريق طب الاسكندرية .

وسيف يلعب فى خط الظهر ومعه كمال على حسن وهو رياضى مثالى يجيد جميع الألعاب الرياضية ، وكان بطل مصر وبطل جامعات أوربا فى الغطس - وقد تجمعت الكليات ضده ووضعت قانوناً فى مواجهته وهو « ألا يلعب أى طالب فى البطولة فى أكثر من لعبتين» وقلب الدفاع زميلنا السوادنى عثمان الحضرى ، وتزاملنا حتى التخرج وعمل معنا طبيب امتيار ثم عمل طبيباً حراً فى بلدته واد مدنى .

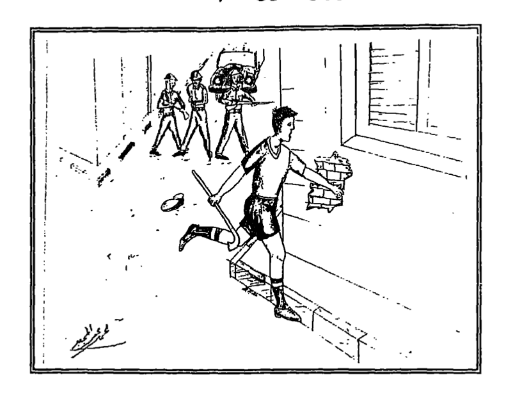
وأذكر من الفريق طوسون زعزوع وكان يجيد اللعب فى خط الهجوم كما كان بطل الجامعة فى التنس .

وكان معه خطاب وجمال الدبه فى خط الهجوم وهما من نجوم الفريق .

بدأت المباراة ولم تمر دقيقتين حتى سجل خطاب هدفاً لكلية الطب فأُخذ المتفرجون من هول المفاجأة وتوالت الأهداف وانتهت المباراة ٦ أهداف لصالح الطب وصفر للزراعة ، وسط ذهول المتفرجين الذى اندفعوا الى داخل الملعب فجرينا خوفاً من بطشهم ، إلا أنهم هاجموا أفراد فريق كلـــية الزراعة وأشبعوهم ضرباً وإهانة ، وهربنا نحن الى محطة القطار .

قتل الله الغرور والتعالى والاستهانة بالخصم فهى الطريق المؤكد للهزيمة . عندما هزمنا عام ١٩٦٧ تذكرت أول ما تذكرت ما حدث لفريق كلية الزراعة من فريق أقل منه كفاءة . ولم أرَ طبيباً بعد ذلك تملكه الغرور إلا وسقط وأصبح نسياً منسياً .

البطولة الرياضية بجامعة فاروق الأول عام ١٩٤٦



تسقط انجلترا . الجلاء أو الثورة يسقط صدقى بيفن .

كنت عضواً في اللجنة الوطنية للطلبة بالاسكندرية وكان من أعضائها محمد عيد من طلبة كلية الحقوق وكان من زعماء الطلبة وكان وفدياً وهو الآن من كبار المحامين بالاسكندرية ولم نتقابل بعد ذلك إلا فى عام ١٩٩١ فى مقر حزب الوفد بالمحلة الكبرى . كما كان من أعضائها الزميل الفاضل على نوفل والزميل السودانى عثمان الخضرى وعباس الدابى من السودان أيضاً ، وكنا على اتصال باللجنة الوطنية بالقاهرة وكان من أعضائها فؤاد محي الدين الذى أصبح بعد ذلك رئيساً لوزراء مصر .

كان معنا فى جامعة الاسكندرية زملاء أعزاء من كثير من الدول

العربية وكانوا يشتركون معنا فى النشاط الرياضى والاجتماعى ، ولكن لم يشارك فى العمل السياسى إلا الأخوة السودانيين . وكنا نحن وهم ننادى بالوحدة بين مصر والسودان .

وكان اشتراك الأخوة السودانيين معنا فى العمل السياسى تلقائياً فلم يخطط له أحد . ومرت السنين وأصبح هذا الجيل ، جيلنا وجيلهم على قمة المجتمع المصرى والمجتمع السودانى ، ولكن لم يتوليا الحكم لا فى مصر ولا فى السودان ... فقد تولاه غيرنا هنا وغيرهم هناك .

ولو كانا هذان الجيلان قد توليا الحكم ، فلربما تمت الوحدة بين مصر والسودان ، وانطلقت بعد ذلك الى الوحدة العربية الكبرى .

ولكن هذا هو قدرنا ....

كانت مصر فى حالة عدم استقرار ، تصادم بين الطلبة والبوليس، حادثة فتح كوبرى عباس ، مات وجرح فيها الكثيرون .

ولكننا فى جامعة الاسكندرية نعمل بصورة منتظمة فالدراسة مستمرة والنشاط الرياضى مستمر .

حصلنا على ٥٢ نقطة فى البطولة العامة للجامعة تلينا كلية الهندسة التى حصلت على ٣٥ نقطة ولم تبقَ إلا مباراة واحدة وتنتهى السنة الرياضية – مباراة يتيمة واحدة بين كلية الطب وكلية الحقوق وهى المباراة النهائية فى الهوكى على بطولة الجامعة ..

والفائز يحصل على الميداليات الذهبية و٨ نقط ، والثانى على الميداليات الفضية و٤ نقط .

وكنت رئيس فريق الهوكى وكان معنا فى الفريق رفعت السيد على وهو من المنصورة وعمل بعد ذلك طبيباً فى السعودية ووصل إلى أعلى المناصب هناك ، وشقيقى أحمد الرفاعى وأصبح بعد ذلك رئيس قسم العيون بطب الاسكندرية .

وفى يوم المباراة حدث تصادم شديد بين الطلبة والبوليس فى مبنى

الجامعة بمحرم بك والتى بها الملعب التى ستقام عليه المباراة - كما اندلعت مظاهرات عنيفة داخل المدينة فحرق تريانون وكشك البوليس الحربى الانجليزى بمحطة الرمل ، وقتل المتظاهرون جميع الجنود بداخله بعد أن قتل الانجليز عدداً كبيراً من المتظاهرين .

أجِّلت المباراة ولكن زميلنا فى الفريق عبد الحفيظ شعلان لم يعرف بتأجيل المباراة فذهب الى الملعب يحمل عصاة الهوكى فكان منظره عدوانياً ، فهاجمه رجال البوليس فهرب منهم معتمداً على سرعته .

أغلقت الجامعة ثم فتحت بعد فترة وكانت السنة الدراسية قرب نهايتها .

اجتمعت اللجنة الرياضية بالجامعة وقررت الغاء السنة الرياضية لعدم استكمالها ، استكمال هذه المباراة اليتيمة .

- نلعب الماتش اللى فاضل فى الزمان والمكان التى تحدده اللجنة - هكذا قال الدكتور عبد الحميد حافظ أستاذ الجراحة بكلية الطب ورئيس اللجنة الرياضية بالجامعة .

- لا الطلبة « مش فاضيين» .

- « طيب » / اعتبرونا منسحبين فيكون لنا ٤ نقط أو لا يكون لنا على الاطلاق يكفى أن عندنا ٥٢ نقطة .

- لا لا لم تتم السنة الرياضية .

ينسحب الدكتور عبد الحميد حافظ من الاجتماع فهو إنسان فاضل لا يحيد عن الصواب ، ولا يقبل إلا العدل .

الدكتور عبد الحميد كان جراحاً ممتازاً منذ مطلع شبابه .

وكان طويل القامة حسن الطلعة - وكنا نحن الطلبة نقول انه يصلح أن يكون سفيراً .

وكان لاعب كرة فى شبابه ، لعب فى فريق المدرسة السعيدية - عندما كان هذا الفريق يضم بين صفوفه أبطال الكرة فى مصر .

تخرج فى كلية طب القصر العينى وعمل نائباً بقسم الجراحة ثم فَضَّل بعد ذلك أن يعمل بالاسكندرية .

بعد قرار اللجنة الرياضية أصيب أفراد الفرق الرياضية بطب الاسكندرية باحباط شديد خصوصاً فريق الهوكى فنحن على وشك الحصول على البطولة .

لقد نجحت اللجنة الرياضية التى تمثل الكليات المختلفة من حرماننا من درع البطولة العامة ظلماً وتعنتاً – ونجحوا بالمغالطات وحققوا ما لم يستطيعوا أن يحققوه بالجهد والعرق على أرض ميدان الرياضة .

بعد كل هذه السنين عندما أتذكر هذه القصة أشعر بحزن عميق لحرماننا من درع البطولة وبحزن أكثر لتخلى اللجنة الرياضية عن الأخلاق الرياضية والقيم السامية .

صالح السيد صالح

بواب منزل العائلة سنوات طويلة - فيلسوف غريب الأطوار ، طفولته كانت سعيدة ، تعلم فى مدرسة الفرير .

يكتب العربية وقليل من الانجليزية والفرنسية مما يثبت عراقة أصوله التى أخنى عليها الدهر ، كما كان يتكلم اليونانية فقد عمل فى صيدلية فى الاسكندرية صاحبها يونانى لمدة سبعة عشر سنة . لم يعمل فى حياته إلا فى أعمال هامشية لأنه لا يستطيع تحمل أى مسئولية .

أولاد العائلة يحبونه ويستمعون لقصصه الطريفة التى تجذبهم وتسحرهم . وكنا نعامله كفرد من الأسرة . عزيز قوم ....

وكانت أهم هواياته ارسال الخطابات لكل أفراد العائلة فى كل مكان حتى خارج مصر فى المناسبات وغير المناسبات وكان يحفظ عناوين الأسرة كلها عن ظهر قلب . وكان يحتفظ بمجموعة من الكروت فيها جميع وظائفه التى شغلها ، وهى كثيرة ، بالعربية والفرنسية ويدفع فى طباعتها أكثر من طاقته ويريها للناس ولا يعطى لأحد كرتاً ولا يفرط فيها أبداً « دا شرفى وتاريخى أديه لحد ازاى» !

« كانت أكبر هذه الوظائف قدراً هى بواب المنزل وقبلها خادم فى لوكاندة أو سايس فى جراج ...»

والكارت به الوظيفة وبجانبها كلمة سابقاً بالعربية والفرنسية .

عندما كنت طالباً ، أرسل لى خطاب دورى من خطاباته على الكلية وكتب على الظرف « حضرة الفارس الحنون» مما أثار ضحك وتعليق الطلبة فلما عاتبته - قال ما الذى يضحكهم فالفارس يعنى شجاع والحنون يعنى فى قلبه عطف على الضعفاء وهى من أخلاق الفروسية فأقنعنى وأفحمهم .

وكان يدّعى علمه بالنحو والصرف ومقدرته على تصريف الأفعال فعل طار ، يطير ، طيارة ، قطار ، قطّاره ولا يقبل فى ذلك مناقشة .

كان يحلق ذقنه يومياً صباحاً بانتظام ويستخدم شفرات الحلاقة التى استعملناها وأصبحت غير حادة ولا يرضى بغيرها بديلاً . وكان يحلق بها بدون صابون « على الناشف» . والعجيب أنه يحلق بها حلاقة جيدة .

استعمل يوماً شفرة جديدة أعطيتها له ، فجرح وجهه فى أكثر من موضع فهو غير معتاد على الشفرات الحادة .

كان يستمع الينا ونحن نقرأ ونذاكر – واستفسر منى مرة عن معنى رقم (-٤) ولما أخبرته أن (-٤) أقل من الصفر ، لم يستطع أن يفهم ذلك بالرغم من شرحى له .

تراهن معى الزملاء بمبلغ ٥ جنيهات إذا أفهمت صالح معنى (-٤) فقبلت الرهان .

– قال صالح : أنا ليس معى نقود ، أى فى جيبى صفر فهل يوجد شخص فى جيبه أقل منى .

– قلت له : نعم يا صالح – الحاج ابراهيم ليس فى جيبه نقود ولكن عليه دين ٤ جم للحاج طه – يبقى أقل منك .

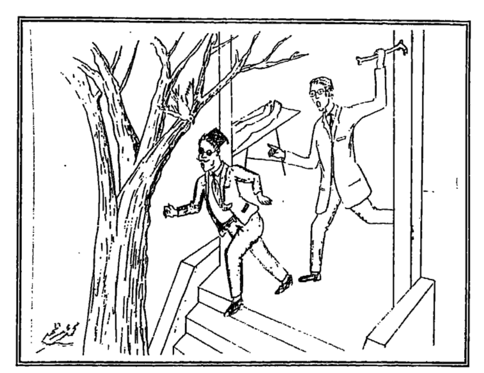
– فصاح صالح فهمتها طبعاً فهمتها « يا سلام العلم حلو » وبذلك كسبت الخمسة جنيهات .

وكان يكتب يومياته مدوناً فيها كل ما هو تافه أو غير تافه . إذا أجاب على التليفون وكان طالب الرقم مخطئاً ، دوّنها أيضاً بالساعة والدقيقة .

وكان يجيد النفخ فى الفلوت . وكان يحفظ أنغام قديمة ، وكان قوياً فقد كان فى شبابه يرفع الأثقال عندما كان يعمل بواباً فى نادى رياضى .

وكان يتعرض لكثير من المداعبات التليفونية من الأصدقاء والزملاء وكان غالباً ما يكشف صوتهم واحداً واحداً مهما حاولوا تضليله . لم تظهر له عائلة ولا أقارب إلا مرة واحدة خلال أربعين عاماً، قابلهم جدى واستضافهم أياماً بالمنزل . ولقد عاش كل حياته وحيداً فى المنزل حتى مات فى هدوء عن حوالى تسعين عاماً .

عبد السميع سراج



زميلنا فى طب الاسكندرية شخصية غريبة الأطوار أكبر من الزملاء بحوالى عشر سنوات فقد طاف بكثير من كليات الطب .

بعد البكالويا ذهب للدراسة فى لندن فلم يوفق ، فعاد الى مصر مع بداية الحرب العالمية الثانية والتحق بكلية الطب فى بيروت – ثم إلتحق بالقصر العينى .

ثم حوَّل إلى طب الاسكندرية – وكان سعيداً بكل ذلك ويسمى نفسه سندباد الطب أو ابن بطوطة وكان ثرياً يمتلك كثيراً من الأملاك.

حَضَرتُ الى الاسكندرية رحلة من طلبة طب القاهرة القاهرة فقابلوا عبد السميع فى حوش الكلية فقال له الاستاذ المرافق للرحلة .

من غير ما اسأل انت طالب هنا فى الاسكندرية .

عرفت منين ؟

– معقول الاسكندرية تفتح والسندباد يعتقها .

لا ينتظم فى الدراسة أكثر من يومين ثم يختفى أسبوع أو أكثر ليظهر ثانية وهكذا ....

كراريس محاضراته يكتب بها ورقتين ثم ٢٠ صفحة بيضاء وهكذا ...

ويصر أن يدخل الامتحان وطبعاً يرسب ويحزن حزناً شديداً ، «مفيش حظ ، بعد كل هذه المذاكرة أسقط ، دا حرام ، دا ظلم ، ويبكى – بينى وبين النجاح ٥ درجات » ويصر على الاستمرار فى التعليم .

من هواياته دخول السينما مرة ، اثنين ، ثلاث مرات فى اليوم . «الواحد ، مش فاكر كلارك جيبل كان مع فيفيان لى ولا جريتا جاربو» ، وهواية أخرى وهى شراء الكتب ، فعنده عشرات الكتب ولا يقرأ شيئاً .

أحد الخبثاء كتب فى لوحة الاعلانات أن عبد السميع يبيع كتبه وكتب أسماء الكتب ، وأعطى عنوان منزله ، وكانت هناك أزمة حادة فى الكتب أثناء الحرب فذهب عشرات الطلبة الى منزله لشراء الكتب وكانت مهزلة من تكرار طرق الباب ، مما أثار غضب زوجته .

– « ما تجوش هنا تانى ، قابلوه فى الكلية » .

– « لكن بقى له شهر لم يحضر للكلية » ، وهكذا سبّبوا له مشكلة أخرى .

فى حالة سفر مستمر فأعماله كثيرة – يسافر لجمع ايجار الأرض أو لبيع القطن .

أستاذ التشريح ينصحه بعدم اكمال تعليمه فلا جدوى من ذلك .

أما هو فَيَدّعى أن الاستاذ يضطهده ...

وكان شخصية محبوبة جداً من جميع الطلبة والأساتذة والعاملين .

إذا حضر الى الكلية التف حوله الجميع فهو يتفنن فى خلق المواقف الهزلية مع أى أحد وقصصه لا تنتهى – حتى الطالبات لا

يتمالكن أنفسهن من الضحك بمجرد ظهوره وكنّ لا يسلمن من تعليقاته اللاذعة .

وكان فى فريق التمثيل فى الكلية ممثلاً بارعاً كما كان مؤلفاً مسرحياً .

فى أحد الامتحانات الشفوية ، كان واقف خارج اللجنة تحت أحد الأشجار فسقطت عليه سمانة فأمسكها فى يديه « يا دى الفال اللى زىّ السكر ، ناجح إن شاء الله » .

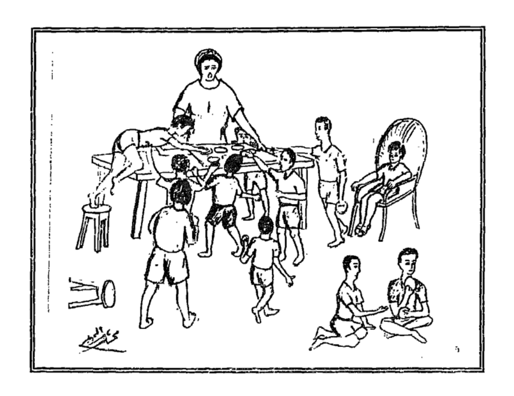
وكان قد غيّر هيئته فأطلق شاربه ولبس نظارة سوداء حتى لا يعرفه الاستاذ الممتحِن . ولم يلبث دقائق حتى طرده الاستاذ ديرى «أيها الرجل العجوز أنا أعرفك من سنوات وأنت لا تعرف شيئاً » خرج فى حالة انهيار تام .

قال له زميلنا أحمد بدران « يظهر اللى وقعت عليك يا عبد السميع كانت بومة مش سمانة » فثار ثورة عنيفة وكاد يضربه . وعند اعلان النتيجة كان يتعجل اعلانها « لسة عنده أمل» . حوّل بعدَ ذلك الى طب عين شمس فهذا مبدأه « ألا يعتق أى كلية» . أمضى فيها عدداً غير قليل من السنوات حتى أصبح زملاؤه أساتذة فمنحوه الدرجة فتخرج أخيراً .

افتتح مستشفى فى حى راقى فى القاهرة وكان يعمل فيه الأطباء النواب والمعيدين « يفيد ويستفيد» .

وفى أواخر أيامه اعتزل الناس وعاش وحيداً دون أسرته وأهمل نفسه وأطلق لحيته ولكن لم تفارقه روحه المرح ، حتى توفى فجأة رحمه الله .

اللقيط



الأربعينيات قسم الأطفال / طب الاسكندرية - كنا نحن الطلبة نقضى فترة تدريب فى القسم . اللقطاء الرضّع تعطيهم ادارة المستشفى لمرضعات لتربيتهم فى منازلهن ، ويحضرونهم للكشف أسبوعياً أو إذا مرضوا فى أى وقت .

وعندما يشب الطفل ، يقيم بالمستشفى فى جناح خاص تحت اشراف المرضات . رأيت مجموعة من هؤلاء الأطفال تحت اشراف إحدى الممرضات ، وكانوا يحدثون ضجة كبيرة بالمستشفى فهم فى غاية العنف ، وكثيراً ما يعتدوا بالضرب على بعضهم البعض ، كما يخطفون الطعام من بعضهم البعض .

ولفت نظرى طفل جميل الصورة يبلغ من العمر ثلاث سنوات

يجلس وحده فى ركن من الحجرة ، لا يشارك الأطفال فى عنفهم وشقاوتهم ولا يرفع عينيه الى أعلى فهو ينظر دائماً الى الأرض ولا ينظر الى أحد وكأنه فى حالة خجل دائم .

قالت لى الممرضة : هذا الطفل الجميل يجلس معنا ولا ينسجم مع الأطفال ولا يشاركهم فى شقاوتهم ولا فى طعامهم فهو يأكل معنا – وهو على هذا المنوال منذ أُحضر الينا ، قدمت له بعض الحلوى فلم يقبلها فهو لا يقبل طعام أو أى شيئ من أحد .

حان وقت طعام الغذاء فأُحضر الطعام للأطفال فهجموا للحصول على الطعام أما هو فلم يتحرك من مكانه . سُبحان الله كيف يتصرف هذا الطفل بهذا السلوك الراقى وسط هذه المجموعة ووسط هذا الضياع ، كيف يحمل كل هذه الكرامة وعزة النفس – من ربّاه على هذه القيم ومن لقّنه هذه الصفات !!

هل هذه الصفات النبيلة موروثة ، وتظهر على هذا الطفل تلقائياً بالرغم من تواجده فى مثل هذا الوسط ، إن الله قادر على كل شيئ .

لقد تَركَت ظروف هذا الطفل فى نفسى أثراً عميقاً ، وكنت أتساءل كيف سيتعايش هذا الطفل مع من حوله .

كتبت هذه القصيدة وقلما كنت أكتب إلا إذا كان التأثير فى نفسى عميقاً ، وأتذكر أن الزملاء فى الكلية كتبوها وكانوا يحفظونها ... وهذا بعض ما كتبت اعتماداً على الذاكرة :

انى رأيت اليوم ما أضنانى ... وأهاج شعرى واستفز بيانى
طفل تشرد فى شروق حياته ... لم يلق عطفاً أو يفز بحنان
ماذا جنيت من الذنوب لكى أرى ... عينيك تبعد مارنت لترانى
أفهمت أنك فى الحياة معذب ؟ ... أعلمت أنك فى الحياة تعانى ؟
هل أنت مصرى ؟ أأنت أخ لنا ... أم هل يفرقنا مكان ثان ؟
من ذا الذى أعطى لنفسك عزة ... وأثار فيك كرامة الانسان ؟
لم تلق أباً هادياً أو مرشدا ... والأم لن تأتى بأى زمان

أتعود يوماً كى يضمك صدرها ... وتشب مثل بقية الفتيان؟

وأرى بوجهك بسمة ونضارة ... وتعيش مبتعداً عن الأشجان

أم هذا وهم نابع من شاعر ... لا يقبل الدنيا بغير حنان؟

وقع الفراق على الطريق ولا أرى ... يوماً طوال العمر تلتقيان

سُبحانك اللهم تُغنى أنفسا ... بمكارم الأخلاق والايمان

وتعلِّم الطفل الضعيف وتصطفى ... ما شئت من ملك ومن انسان

أستاذنا الشاعر الدكتور / أحمد زكى أبو شادى
١٨٩٢-١٩٥٥

أسعدنى الحظ انى تتلمذت على الأستاذ الدكتور / أحمد زكى أبو شادى أستاذ ورئيس قسم البكتريولوچى ووكيل كلية طب الاسكندرية فى الأربعينات . والشاعر الدكتور / أبو شادى فى غنى عن التعريف لجيلنا والأجيال التى سبقتنا - وكان الاستاذ الثانى بالقسم الدكتور عمرت خيرت فنان أيضاً ، له شهرة عالمية فى التصوير الذى حصل فيه على جوائز عالمية.

بدأ الدكتور أبو شادى دراسته فى كلية طب القاهرة ، ولكنه ترك مصر وأكمل دراسته بانجلترا وتخصص فى علم البكتريولوچى ونال جائزة « وِبْ » ١٩٢٢ - ترك مصر عندما تعرض وهو فى بداية شبابه لهزة عاطفية عميقة زلزلت كيانه وهو الانسان الرومانسى الرقيق .

عاش فى انجلترا غريباً حزيناً - وقد لازمه هذا الشعور طول حياته بالرغم من مرور السنين ، يقول فى قصيدته « لفتات الغريب» التى نظمها فى انجلترا :

الا فى سبيل الحب والأمل الغالى	عذابى عذابَ النفيِ فى الجبلِ الخالى
وأندبُ عمرى قد تولّى أعزُّه	ولم يبقَ غيرُ الذكرِ والمثلُ العالى
سأحيا وأفنى فيكِ أصدقُ عاشقٍ	أصابَ به الزلزالُ قسوةَ أبطالِ

والدكتور أبو شادى شاعر رقيق من أبلغ شعراء مصر والعالم العربى،كتب فى كل أغراض الشعر وله ثمانية دواوين بالعربية وأربعة أوبرات شعرية ، وترجم رباعيات الخيام الى العربية ، كما له ثلاثة دواوين باللغة الانجليزية . والدكتور أبو شادى متعدد المواهب كتب فى النقدِ الأدبى والدراسات الاسلامية ، كما اهتم بدراسة النحالة وأسهم

فى تأسيس معهد النحل الدولى سنة ١٩١٩ ، ومجلة عالم النحل بانجلترا واشتغل بالتصوير ليجمع فى يده ريشةُ المصور وقلمُ المعبِّر .

عاصر ثورة ١٩١٩ وتفاعل معها ، ويعتبر رثاؤه لزعيم مصر الخالد سعد زغلول من أروع ما قيل فى الرثاء (مأتم أمه).

سامح شَجِّىَ مدامعى ونواحى	طاحت بموتك دولة الاصلاحِ
قسما بقدرك ما رحلتَ مودِّعا	لكن ذهبت الي جديدٍ صباحِ
ستعيش فى شتى المظاهر واهبا	للنور والالهام والافصاحِ
ما مات من أحيا كرامةَ أمةٍ	وأعز دولتها بغيرِ سلاحِ

أنشأ جمعية أبولو للشعر سنة ١٩٣٢ ، وتولى رئاستها أميرُ الشعراء أحمد شوقي وتولى هو منصب السكرتير ، فأحدثت نهضة أدبية رفيعة فى الشعر العربى ، ودفعت الى عالم النور شعراء موهوبين . والدكتور أبو شادى يعشق الطبيعة ويرى فيها ابداع الخالق سبحانه وتعالى . يقول فى قصيدته « الخريف فى حلوان » :

هذا الجمالُ وذاك سحرُ بيانه	فاشرب كؤوسَ الحسنِ من احسانه
حلوُ من العيشِ اللذيذِ سناؤُهُ	لا غرو أن يُهدَى الى « حلوانه»
بلدُ به خلع الربيعُ خريفَهُ	وأقام صدّاحا على أفنانه
الشمس قد تَخِذَته عاصمةً لها	والشهبُ والأقمارُ من سكّانه
أنظر الى الدُرِّ الرقيقِ من الندى	سِترا توارَى التبرُ خلفَ حِسانه
يهتزُّ حتى الصخرُ من طرب لها	ويحنُّ حتى الطينُ من الحانه
البلبل المَحْكِيُ يُنشد شِعرَه	والطير راقصةٌ على ديوانه
لو حاول الشعراء أبلغ وصفِهِم	لم يُحسنوا إلا على أوزانه

ولم ينسَ أستاذنا الدكتور أبو شادى أنه طبيب فخاطب الميكروسكوب « المجهر رفيقى الكشاف» .

صحبتك عمراً في وفاءٍ ومتعةٍ فكنت لفني ملهماً ولأفكاري
فكم من بيان لاح لي منك مرشدا وكم من معانٍ قد وهبت وأسرارِ
ويُذهلُ قوماً أن يحبك شاعر وما عرفوا فنيَّ الدقيقَ وأشعاري
أرى فيكَ سرَّ العيش والموتِ معلناً مراراً وآلام الوجود بتكرار
ويا ربَّ خيطٍ عُدَّ جُرثومَ قوةٍ تناولتُ منه الوحي والأمل الساري

حافظ على معمل العالم الألماني كوخ ، الذي كان موجوداً في كلية طب الاسكندرية ، هذا المعمل الذي اكتشف فيه كوخ ميكروب الكوليرا في القرن الماضي ، كما حافظ على ميكروسكوبه . وللأسف هُدِمَ المعمل ونقل الميكروسكوب الى مستشفى التأمين الصحي حبيساً في أحد المكاتب .

والشاعر أبو شادي فيلسوف حكيم يقول :

ما الخلقُ ما هذه الدنيا ومَنشؤُها ما الفكرُ ما الجوهرُ الباقي وما العدمُ
مسائلُ هي للأحقاب باقية كما سيبقى الردَى والشكُّ والألمُ

كنا نستمتع بالجلوس معه والتحدث اليه - وكان يحضر في الحفلات التي تقيمها الكلية مع زوجته الانجليزية وكريمتيه ، وكنا نشعر نحن الطلبة ونحن جالسون معه كأننا أسرة واحدة . للأسف لم يمكث معنا طويلاً فقد هاجر الى الولايات المتحدة سنة ١٩٤٦ بعد تعرضه لصدمة نفسية عميقة حدثت له نتيجة لإجراء قاسي وُقِّعَ عليه من الحكومة لوشاية بعض الحاسدين ، وبالرغم من تراجع الحكومة عما فعلته به ، لم يقبل هذه الاساءة أبداً ، وهو الانسان الرقيق فترك مصر على كره منه ، فهاجر الى الولايات المتحدة وعمل هناك أستاذاً للأدب العربي بمعهد آسيا بنيويورك .

وفي أمريكا أحدث نهضة رفيعة في الأدب والشعر العربي متعاوناً مع شعراء المهجر وأصدر أربعة دواوين شعرية .

وبالرغم من مرور الأيام لم ينسَ وطنه ، ولم ينسَ حبُه فيقول فى قصيدته شمس الربيع فى نيويورك سنة ١٩٥٢ .

شمسُ الربيع تبرجي وتناسى	إنّى المعذبُ بين كلِ الناسِ
هلا أدكرت وما قسوتِ طفولتى	وشبيبتى حين اشتعلت برأسى
هلا أدكرت صبابتى وخيالَها	فى النيلِ بين تثاؤبٌ ونعاسِ
هلا أدكرت منازلاً بادلتُها	حبِّى وخالط جَوّها احساسى
هلا أدكرت الرملَ رفَ بغيده	والبحرَ لى دنٌ وقرصكَ كاسى
هلا أدكرتِ جميعَ ما ضحيتُه	لأعزُ مصرَ فضاعَ فى الأرماس
هلا أدكرت تهافتي لجلالِها	فرُجمتُ من أيدى العقوق القاسى

وكنا نحن الطلبة نستمتع بمحاضراته ولا عجب ، فالمحاضر طبيب وشاعر وأديب .

فى إحدى المحاضرات كان يدرس لنا مكونات الألبان المختلفة – لبن الجاموس والبقر . وقال أن لبن الحمار أقرب الألبان فى مكوناتها للبن الانسان – تعجب الطلبة فقال لا تتعجبوا ، فأنا شربت لبن الحمارة ، ففوجئنا بالزميل المرح سعيد مرسى يصيح « ما هو باين يا بيه ». تكهرب الجو ولكن فوجئنا بالدكتور أبو شادى ينفجر من الضحك بروح مرحة وهو ينظر الى سعيد باعجاب – فضجت القاعة كلها بالضحك – واستمر الدكتور أبو شادى فى القاء المحاضرة ، وكانت تعاوده نوبات من الضحك .

وبعد المحاضرة تساءلنا فيما بيننا ، ماذا كان سيحدث إذا كان المحاضر الاستاذ فلان مثلاً ؟ رحم الله الدكتور أبو شادى فقد كان انساناً عظيماً سابقاً لعصره ، أثرى العلم والأدب كما لم يثره أحد من قبل ، والذى وصف حياته بقوله :

فقصيدتى الكبرَى حياتى مِلؤُهَا	نغمى وملءُ دُموعها أبياتى

وقد غادر دنيانا من غير أن يحظَى بأى تقدير يُذْكَر ، وكأنه يرثى نفسه عندما قال :

أسـفـا أعـود الى السـمـا ء كـمـا أتيت بتبعٍ فنى
لـم ألق فـى دنيـا الأنـا م سـوى المهـازلَ والتـجنّى

الدكتور/ زكى مبارك

مساء يوم من أيام أغسطس سنة ١٩٤٩ ، حضر اثنان من هيئة التدريس بكلية آداب الاسكندرية يحملون الدكتور زكى مبارك فى استقبال الحوادث بمستشفى كلية طب الاسكندرية .

هذا العالم العظيم والكاتب اللامع ، أصابته حالة نزلة معوية حادة – والنزلة المعوية خطيرة إذا أصابت الطفل أو المسن .

قمت بعمل اللازم واستنجدت بزميلى القدير الدكتور/ عثمان الحضرى لمساعدتى ، وعثمان الحضرى زميل الدراسة والعمل ، عمل بعد ذلك طبيب حر فى بلدته واد مدنى بالسودان ثم عمل فى السلك الدبلوماسى سفير للسودان فى باكستان ثم الولايات المتحدة ثم مصر .

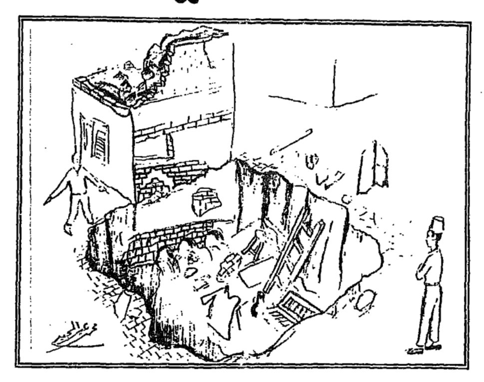
ونجح فى وزارة الخارجية كما نجح فى مهنة الطب ثم عاد لمهنته وهو يعمل طبيباً فى الخرطوم الآن .

مكثنا أنا وعثمان طول الليل نعالج الدكتور/ زكى مبارك حتى مرت مرحلة الخطر . وفى الصباح تحسنت حالته وأصرَّ أن يخرج من المستشفى فعرضت عليه أن أوصله الى منزله فشكرنى وانصرف .

ثم فوجئت يوم الثلاثاء بمقالة فى جريدة البلاغ « ليلة فى المستشفى الأميرى» للدكتور زكى مبارك ، وكنا نظن أنه غير منتبه طول الليل . وصف كل شيئ فيها بدقة – « طفل يقول الحقنى يا دكتور ، رجل يتألم من مغص كلوى ، حتى الممرضة الجميلة فقد ذكرته بليلى المريضة فى العراق .

رحم الله الدكتور زكى مبارك فقد كان قمة فى الأدب المعرفة ولا زلت أسعد بقراءة كتبه ، ولم يسعدنى الحظ لأن أقابله أو أتعرف اليه بعد ليلة مرضه .

اختفاء منزل



أحضر الاسعاف الى المستشفى صباح أحد أيام صيف ١٩٥٣ فتاتين شقيقتين ، إحداهما مصابة بجرح قطعى كبير فى الساق والأخرى فى حالة عصبية هستيرية .

أجريت عملية جراحية للأولى وأعطيت الثانية مهدئات فلم تهدأ .

– أمي ماتت جوه البيت والبيت غرق تحت الأرض !

– مسكينة إنها لاتزال تهذى « هكذا قالت الممرضة» .

وبعد قليل حضر والد الفتاتين « إنها لا تهذى إنها تقول الحقيقة .

المنزل غرق تحت الأرض – أكد مسئول الاسعاف أقوال والد الفتاتين .

ذهبت معه لكى أرى ما حدث على الطبيعة – دخلنا شارع ضيق فى مدينة المحلة الكبرى ، فوجدت فجوة كبيرة فى الأرض فى حجم

المنزل وكانت مساحته صغيرة وارتفاعه ثلاثة أدوار وفي كل دور شقة واحدة - وتحت مستوى الأرض بحوالى ستة أمتار رأيت سطح المنزل وعليه أحبال الغسيل أما المنزل فقد غاص كله تحت الأرض وكان على جانب الحفرة العميقة طبقة سميكة من الأحجار الحمراء وهى عبارة عن سقف لخزان مياه جوفية تحت الأرض .

- إن هذه الصهاريج هى خزانات كبرة وعميقة من المياه تحت الأرض من العصر الفاطمى ، وقد نسيت مع الزمن ، بُنى فوقها هذا المنزل لم يتحمل سقف الخزان حمولة المنزل فغاص مع المنزل الى قرار سحيق .

ماتت الأم فى المنزل ومات باقى السكان .

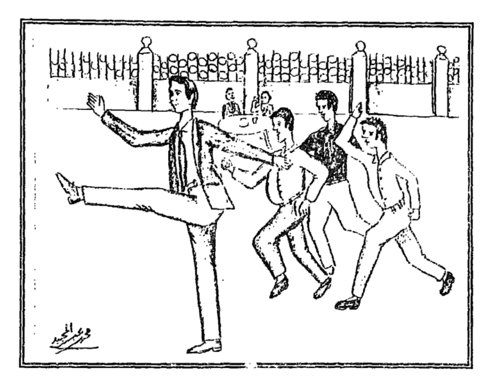
أما الفتاة الأولى التى جرحت فقد انقذت لأنها كانت فوق السطح . أما الثانية فلم تكن بالمنزل ولما عادت لم تجد المنزل !!

أما والد الفتاتين فقد كان يعمل عملاً ليلياً ولم يكن قد عاد الى المنزل بعد .

لم أرَ الفتاتين إلا بعد سنوات طويلة عندما حضرتا الى عيادتى فى مشورة طبية وقد أصبح لهما أولاد وأحفاد ...

ولكن مهما طال الزمن فلا يمكن أن ينسيا هذه الحادثة الرهيبة التى فقدتا فيها أمهما وأنقذتهما رعاية الله من موت محقق .

جنرال ريمر



قائد ألمانى من قواد الدبابات فى الحرب العالمية الثانية طويل القامة ممشوق القوام - اشترك فى معارك تشيكوسلوفاكيا والاردين بفرنسا. رقى چنرال وعمره ٣٢ سنة ، منضبط ، مخلص لوطنه على درجة عالية من الثقافة ، يجيد الانجليزية ، كان حاكم برلين العسكرى سنة ١٩٤٤ وقضى على المؤامرة التى دبّرها بعض القواد العسكريين ضد هتلر .

« أنا رجل عسكرى تقليدى ، ولم أكن عضواً فى الحزب النازى وليس لى فى السياسة ، أنفذ الأوامر وأحمى سلطة الدولة تصور يا دكتور حاكمونى فى نورمبرج وسجنت ٥ سنوات بتهمة أننى نفذت أوامر قائد الدولة وقضيت على مؤامرة القواد ضد هتلر . كان يعطونى ٧٠٠ كالورى طعام فى اليوم فقط .

وفى السنة الأخيرة لم أكن أستطيع الوقوف أو السير فكنت أحبو كالطفل لكى أحصل على طعامى .

كان على درجة عالية من الثقافة ، مؤمن بوجود خالق ينظم هذا الكون ، ولكنه لا يعتنق أى دين ولم يذهب إلى الكنيسة قط « كثيرون مثلى فى ألمانيا» .

يعشق الحضارة الاسلامية عن علم واقتناع مثله الأعلى وهو طفل هو « الزعيم عبد القادر الخطابى» الذى حارب الفرنسيين والأسبان وانتصر عليهم .

« والدتى كانت تقرأ لى سيرته وأنا طفل ، وكنا نحن الألمان معجبون بشجاعته » .

بعد خروجه من السجن عمل فى العراق فى البترول ثم حضر الى مصر سنة ١٩٥٣ لإنشاء أول طابور مدّرع فى الجيش المصرى .

إحتج الانجليز لوجود قائد نازى ، أنكر المسئولون وجوده وطلبوا منه أن يحتجب لمدة ٣ شهور خارج العاصمة . أقام عند صديق له فى المحلة الكبرى دكتور/ عبد اللطيف محرز وكان متخرجاً من ألمانيا ويجيد الألمانية فعرّفنى به وطلب منى أن أتخذه صديقاً ، فأسعدنى ذلك .

– وقال لى ذات يوم : « هل تعلم يا دكتور ما فعله الانجليز فى درسدن ؟

استسلمت ألمانيا وأعلنت الهدنة وحددت ساعتها ، فقامت طائرتهم قبل الهدنة بساعات بالقاء قنابل حارقة بكميات هائلة على درسدن ولم يكن فيها إلا مدنيين ، فاختبأ الناس فى سراديب طبيعية فى المدينة – ولما انتهت الغارة خرجوا فمات معظمهم فلم يكن فى الجو اكسجين – ماتوا بالاختناق » .

زرت مدينة درسدن سنة ١٩٧٠ وكانت آثار تدمير الحرب لاتزال ظاهرة وأرونا برج كنيسة « كان يقف هنا جاسوس انجليزى ليحدد للطائرات الأهداف ، فى الغارة التى قضت على سكان المدينة » .

اما المتحف العظيم بالمدينة فلم يُمَس لأن لوحاته كانت مخبأة فى سراديب تحت الأرض .

ما هذه القسوة التى يترفع عنها الوحش – لقد بلغ الانسان أدنى درجات الانحطاط ولم يرقى الى مرتبة الحيوان .

فى إحدى الأمسيات سار بخطوة الأوزة التى كان يسير بها الجنود الألمان ، بناء على طلب بعض الأصدقاء ، الذين حاولوا تقليده فلم يتمكنوا من مواصلة السير معه من الاجهاد .

ثم يذهب ريمر الى القاهرة وينُشئ أول طابور مدرّع فى الجيش المصرى ولم أره بعد ذلك .

تمر السنون – حديث صحفى للچنرال أوتو إرنست ريمر فى جريدة الشعب يوليو ١٩٩٣ – لا يزال يعيش فى ألمانيا ، نفس أفكاره – مفكر عظيم يدافع عن الاسلام كأكبر مفكر اسلامى .

– اعتبر الاسلام وطنى الثانى ويؤلمنى ما تتعرض له الأمة من ظلم.

– النظام العالمى الجديد نظام صهيونى تنفذه أمريكا .

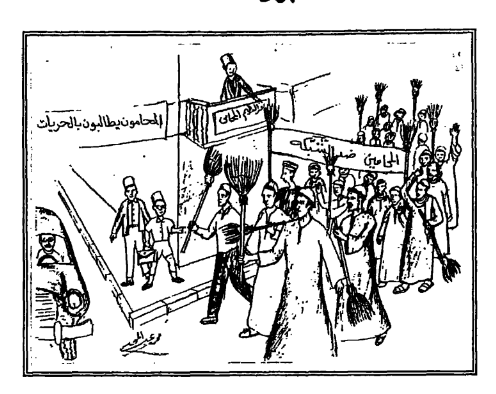
– حرب الخليج لم تكن حرباً لتحرير الكويت بل مجرّد مذبحة ومجزرة وحشية لشعب العراق .

– الجهاد الأكبر هو تنظيم العالم الاسلامى من الداخل – أما الجهاد الأصغر فهو قهر اسرائيل .

– انطلق الصاروخ الاسلامى ولا يمكن ايقافه وسيصل فى حينه والاسرائيليون يعلمون ذلك تماماً – مسألة وقت .

– ألمانيا واليابان أعلنتا حرباً اقتصادية ضد أمريكا – كم أود رؤيته لا ستعيد ذكريات الشباب مع مفكر وانسان عظيم .

المحلة الكبرى ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦



الوضع السياسى غير مستقر - جيلنا المثقف غير سعيد بما وصلنا اليه لم نكن نتمنى ذلك - كانت أحلامنا كبيرة ولم تتحقق - نحن فى حالة إحباط وتمزق - لقد جاهد جيلنا منذ نعومة أظفاره . - ثورة الطلبة سنة ١٩٣٥ من أجل عودة الدستور وسقط منا شهداء . - ثورة الطلبة سنة ١٩٤٦ لرفض معاهدة صدقى - بيڤن وسقط منا شهداء . - إضراب الأطباء سنة ١٩٥١ رفضاً للأوضاع السياسية والاجتماعية التى كانت سائدة . - المقاومة المسلحة لقوة الاحتلال الانجليزية فى قناة السويس سنة ١٩٥١ .

اشتراك طلبة الجامعة فيها وسقط منهم شهداء .

هاجر كثير من الزملاء الى أوربا أو الى الولايات المتحدة واستقروا هناك . كنت أعمل بمستشفى المحلة الكبرى - قابلنى زميل عزيز وكان عائداً من بعثة من الولايات المتحدة الامريكية وشجعنى على أن

أسافر الى أمريكا وأعمل هناك . قدمت طلباً لجامعة مينوسوتا كما نصحني – وكان الرد مشجعاً فأسعدني ذلك . كان أعجب ما جاء فى الخطاب المرسل الىَّ من رئيس القسم فى الجامعة « أنه يسعده أن أعمل معه لأن الدكتور ايليا حكيم قد أوصاه خيراً بى » . ولم تكن لى معرفة سابقة بالدكتور حكيم ! .

وبعد ذلك عرفت أن الدكتور حكيم قد ساعدنى بدون معرفة سابقة، لأننى مصرى وهو لبنانى – فكلنا عرب ... وقديماً قال شاعر لبنان بشارة الخورى « ان العروبة فيما بيننا ذِمَمُ» .

كما قال شوقى « وما العربية إلا وطنْ» .

ذكّرنى ذلك بأحد الزمـلاء اللبنانيين الذى كان قد أرسل طلباً للعمل بمستشفى فى أمريكا ، وكان يأمل خيراً بقبول طلبه لأن المستشفى اسمها « مستشفى لبنان» فجاءه الرد مقتطباً .

« نحن لا نقبل عرباً » فقد كان هذا المستشفى اسرائيلياً بالرغم من إسمه !! .

–أسعدنى رد رئيس القسم فاستشرت أستاذنا الدكتور عبد الرحمن الصدر فنصحنى بأن أقبل العمل هناك بلا تردد .

عرضت الموضوع على الأسرة فرضت رفضاً قاطعاً ، كما عرضت على الأصدقاء الكبار فى البلدة كالعرف والتقاليد فلم يرحبوا بذلك.

– يجب أن تظل معنا فنحن فى حاجة اليك فى هذه الظروف – وأنت تخدم بلدك بأمانة ، فكيف تتخلى عنها .

–ولكنى غير سعيد – كيف أعمل فى هذا المناخ ؟!

بالأمس انطلقت مظاهرة من الغوغاء المأجورين تقودهم هيئة التحرير يرددون « يسقط المحامين الجُهلة » المحامين ضد الشعب ثم لم يلبثوا أن خرجوا على النص فهتفوا « المحامين ضد الشبكة» والشبكة هى شبكة الصرف الصحى التى يعملون بها .

كل هذا لأن نقابة المحامين أيدت عودة الحياة الدستورية ، وهل تملك نقابة القانون أن تقول بغير ذلك ! .

وفى هذا الهرج ، انطلقت مظاهرة مماثلة وانتهزت فرصةالفوضى السائدة وهاجمت إحدى الشركات التجارية فى الشارع العباسى ونهبتها ... وكادوا ينهبون إحدى الصيدليات لولا تصدى بعض الأهالى لهم ، أما باقى النقابات فى المدينة ، فقد اجتمعت لترسل برقيات ترفض فيها عودة الحياة الدستورية !!

اتصل بى الزميل المسئول عن نادى الأطباء ونصحنى بالحضور لاجتماع عاجل ، لرفض عودة الأحزاب والحياة الدستورية .

– كيف أطلب عدم عودة الحياة الدستورية ، ونحن نطالب منذ نعومة أظفارنا بالدستور المثالى ان هذه هى خيانة لمبادئنا ولأرواح شهدائنا .

هل تنتظر منى أن أقول « تسقط الحرية » :

–ولكنها ستسقط على أى حال !

– إذا أسقطها غيرى فهذا هو قَدَرُنا ، ولكنى لن أطالب بذلك أبداً .

– إذاً ، أنصحك بعدم الحضور .

فلم أحضر واكتفيت بذلك ، وهذا أضعف الإيمان .

وللتاريخ أسجل موقفاً مشرفاً للزميل الدكتور مرقس يوسف ، الذى عارض القرار ، ولكن معارضته ذهبت هباء ، فقد كان هو المعارض الوحيد ، فقد أذل الحرص أعناق الرجال .

هل هذه هى المحلة الكبرى قلعة الوطنية فى ثورة سنة ١٩١٩ التى قادها زعيم مصر سعد زغلول والتى كافح فيها آباؤنا وأجدادنا .

أما فى القاهرة فقد اقتحم فريق من الغوغاء تحت قيادة أحد الضباط مقر مجلس الدولة وأعتدوا بالضرب على رئيس المجلس ، عبد الرازق السنهورى وكسروا ذراعه لأنه طالب بعودة الحياة الدستورية ...

لقد كُسِرت الشرعية وحطم الدستور ....

وسيأتى الدور على الأطباء بعد ذلك .

–ولكن الأصدقاء الكبار قالوا طبعاً تعمل ولا تتأثر بما حولك – وأنت معروف عنك حب الانتماء لبلدتك ووطنك ألست أنت الذى طالما ردّدت قول شوقى :

إنى أحب وإن شقيت به وطنى وأوثره على الخلد

وقديماً قال الشاعر :

بلدى وإن جارت علىّ عزيزة وأهلى وإن ضنوا علىّ كرام

فلم ألبث أن اقتنعت .

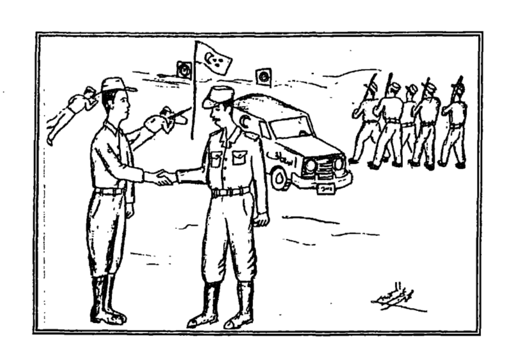
تفرغت للعمل بالمستشفى وكنت أعمل فيه ساعات طويلة نهاراً وليلاً بلا كلل ولا ملل ، مبتعداً تمام البُعد عن الحياة السياسية .

فقد نبت خلال هذه الحقبة طبقة من الوصوليين ، بلا أصول ولا علم ولا كفاءة ، سيطروا على كل شئ ، وطفوا على سطح المجتمع كالحشائش الضارة ، وأوقعوا بأصحاب الرأى الحر والكفاءات ، فدمّروا فى سنوات قليلة القيم والمبادئ السامية التى توارثها المصريون عبر آلاف السنين .

ابتعدت أيضاً عن الحياة الاجتماعية فهذا أسلم – واندمجت فى القراءات الطبية والأدبية ، فلم تمضِ سنوات حتى شعرت بأننى حصلت على ثروة علمية وثقافية .

أنا من بدّل بالكتب الصحابا لم أجد لى وافياً إلا الكتابا

وفى سنة ١٩٥٦ حدث العدوان الثلاثى على مصر فتوحدت مصر كلها وقاومت الغزو الغاشم .



توحد الشعب للدفاع عن التراب المصرى ، وليس للدفاع عن الفكر السياسى ، لا جدال فى ذلك .

ومثل هذا الموقف وقفه الشعب الروسى فى الحرب العالمية الثانية ، فقد حارب ببسالة ضد الغزو الألمانى ، دافع الشعب عن ترابه ولم يكن قطعاً يدافع عن النظام الشيوعى .

– تطوّعت فى قوات الحرس الوطنى وانتظمت فى تدريبات عسكرية مكثفة ، ثم انشأت وحدة طبية فى سيارة ملحقة بالكتيبة العسكرية ، وتطوع معى الزميل العزيز المرحوم الدكتور كمال عبد الغنى عثمان .

وشعرت بأن قائد الكتيبة الصاغ سامى أبو الوفا معجباً ومندهشاً بما أقوم به ، ولم يلبث أن صارحنى :

– لا تؤاخذنى عما سأقوله ! لم أكن أتوقع منك كل هذا ! .

– لماذا ؟

– لقد قيل لى منذ حضورى الى هنا بأنك غير متجاوب . كما أنه ليس لك ولاء لوطنك ، وهأنذا أرى اننى كنت مخطئاً فى التقدير –

فهؤلاء الذين كانوا يرددون هذه الأقوال لم أرَ منهم أحداً الآن ، ولم يتطوع منهم أحد .

« ان هذه الأقوال فسّرت لى بعض تصرفات القائد فى الماضى – فعندما كان يحضر للمستشفى لعمل رسمى ، كان يتكلم بطريقة جافة فلم البث أن تجنبت لقائه أو الحديث معه » .

قلت : إن هذه الأقاويل التى بلغتك عنى لا أساس لها من الصحة وقديماً قال المتنبى :

وإذا أتتك مـذمـتى من ناقص فهـى الشهادة لى بأنى كامل

ومثل هؤلاء المنافقون موجودون فى كل المجتمعات ، فهم كالخفافيش ، لا تعمل إلا فى الظلام – ولو ترك لهم الأمر لدمّروا كل شئ . وقد رأيت أنت سلوكهم المعيب والوطن فى محنة – ولن يظهروا ثانية إلا للحصول على بعض المكاسب .

أما انتمائى وولائى لوطنى فهو مبدأ وعقيدة منذ الصغر ولا يصح أن نفتخر بذلك أو نتباهى به ، فهو فرض علينا وليس عطاء نقدمه .

وأنت وأنا كنا طلبة فى المنصورة الثانوية ، وأظنك تتذكر مواقفها الوطنية التى اشتركنا فيها .

وأنا أكتب الشعر أحياناً عندما تتأثر نفسى تأثراً عميقاً .

وسوف أعرض عليك ما كتبته هنا فى المعسكر مساء أمس مخاطباً مصر ، ولم يقرأه أحد قبلك ، وهذه القصيدة ، كان قد جاء فيها :

أأسو الجراح وأشفى البشر وفى القلب جرح عميق الأثر
أحبك عند ضفاف الغدير وبين المروج وظل الشجر
أحبك فى الليل لها سجَى وأعشق فيك جمال القمر
وحرص المحبين كتم الهوى وعند هواك أذعت الخبر

تجـــاهلت حـــبى وأهملتنى	فـمـا لى رأى ولم أسـتـشـر
وحل الظلام فـأعـمى القلوب	فـأين الخـلاص وأين المفـر
تلفت حـولى أروم الرحـيل	فكل التـراث العـريق اندثر
ففى الشـرق مـال يقيم الحـياة	وفى الغرب علم يفوق البشـر
وناديتنى فـرفـعت السـلاح	لا حـمل عنك الأذى والضـرر
فمهما قسوت ومهما ظلمت	فحبك فى مهجتى مستقر
أحبك مصر فأنت الحياة	وأنت المصير وأنت القدر

هذا هو رأيى وهذا هو مبدأى ، ولا يمكن أن أتخلى عنه –واختلاف الرأى لا يُفسد للود قضية .

فلم نلبث أن صرنا أصدقاء ، وصارت بيننا ألفة ومودة – وقد توفى رحمه الله فى شبابه بعد مرض قصير لم يمهله .

ومرت الأيام ، وعدت ثانية الى الجامعة عبر طريق شاق من الكفاح – وتدرجت فى العمل حتى رأست قسم جراحة المسالك البولية بطب الاسكندرية ، ثم شَرُفت بانتخابى رئيساً لجمعية جراحى المسالك البولية المصرية . خلال هذه الحقبة من الزمن شاركت فى التدريس والعمل فى أكثر من جامعة وأنشأت مراكز لتدريب الاخصائيين على الجراحات الحديثة بمستشفيات وزارة الصحة وداومت على العمل بها .

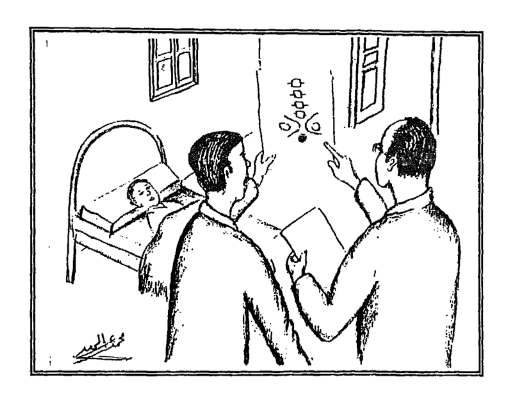
أنظر الى الماضى بعد كل هذه السنوات ثم أنظر الى الحاضر وأسائل نفسى هل قرارى بعدم الهجرة كان قراراً سليماً ؟

– ربما كنت سأحقق فى أمريكا إنجازات علمية أكبر،فالامكانات للأبحاث العلمية هناك أكثر من هنا بكثير .

– هل وجودى بمصر كان ذا فائدة لبلدى ، كما كان قد توقعه أصدقاءنا الكبار ، الذين نصحونى بالبقاء فى مصر منذ أربعين عاماً ؟

أترك تقدير ذلك لغيرى من الزملاء والأصدقاء فهم أقدر منى على هذا التقييم .

جراحة لطفل



شهر أغسطس – الحرارة قاتلة – نائب فى مستشفى خاص جاء لأخذ رأيى :

– سنعمل عملية استخراج حصاه لهذا الطفل وهذه هى الأشعة .

– لا يا ابنى إنها ليست حصاه ، أرجو أن تنبه الجراح لذلك .

عند مرورى بالمساء قابلنى النائب وقال :

– الطفل مات وقد تعبنا فى البحث ولم نجد حصاه .

مات بعد العملية من ارتفاع فى درجة حرارته نتيجة للتخدير بالاتير .

– لماذا لم تنبه الجراح كما نصحتك ؟

– لقد نبهته فلم يتسجب الىّ ، بل نهرنى .

- ماذا تقول ؟ لماذا ذلك ، الرجوع الى الحق فضيلة .

تمر سنوات وينبهنى طبيب صغير قبل اجراء عملية كنت سأجريها .

أرى أن تعيد عمل أشعة صاعدة للمريض ونؤجل العملية - اقتنعت بوجهة نظره ونفذت رأيه .

جل من لا يسهى - وكلنا معرضون للخطأ -وكل رأى معقول مهما كان مصدره ولا مانع من مناقشته .

كلما ازداد الانسان علماً ، ازداد حرصاً .

يجب دراسة حالة كل مريض بكل دقة وعناية وأمانة ، وأخذ قرار حكيم قبل اجراء العملية ثم التوكل على الله بعد ذلك .

إن الطبيب الشريف هو رسول الرحمة على الأرض، يرى الموت ويرى الحياة ، وبينهما خيط دقيق .

ان الراحة النفسية التى يحصل عليها الطبيب بعد انقاذ حياة مريض بإذن الله ، لا يعادلها شئ فى الوجود .

أما الألام النفسية التى تحدث للطبيب الانسان عند وفاة مريض واحد ، أو فشل جراحة واحدة ، أشد على نفسه من الراحة التى يحصل عليها إذا أنقذ مائة مريض .

آلام المغص الكلوى

إن آلام المغص الكلوى لا يطيقها انسان مهما كانت قوة احتماله . أصابتنى أول مرة وأنا على وشك أن أقوم باجراء عملية لمريض ، أخذت علاجاً سريعاً فزال الألم ثم تكرر لمدة سبعة أيام . لم أكن أتصور أن هذا الألم بهذا القدر من القسوة، ولم ينقطع إلا عندما نزلت حصاه صغيرة تافهة .

وبعد هذا العناء نظرت الى مرضى المغص الكلوى نظرة أكثر دقة وأكثر واقعية - فكنت أسرع باعطاء العلاج بنفسى فوراً ، وأعطى المريض سبعة أيام راحة ، وكنت قبل ذلك أعطيه يوماً أو اثنين كما هو متبع .

هل لا بد أن يمرض الطبيب حتى يستقيم حكمه ؟

لماذا كل هذه الآلام - انها حكمة من الله جل جلاله .

فهذا الألم هو انذار للمريض بأن هناك انسداداً خطيراً يجب اكتشافه .

هناك حالات نادرة لا يحدث فيها ألم ويظل الضرر للكلية أو الكليتين مستمراً،وقد تتفاقم حالة المريض ، ويدخل فى حالة فشل كلوى، فهو لم يشعر بألم حتى يستشير الطبيب .

نفس الوضع إذا أصيب المريض بذبحة صدرية ، وهى حالة انسداد بالشرايين المغذية للقلب « يشعر المريض بآلام شديدة فى الصدر مع ضيق فى التنفس » . وكان أستاذنا العظيم الدكتور محمود صلاح الدين رحمه الله يقول : « إذا حدثت هذه الأعراض فعلى المريض أن يجلس فى مكانه ولا يتحرك فالحركة قد تقضى عليه » .

وقد حدث أن تعرض الدكتور محمود صلاح الدين لذبحة صدرية وهو سائر فى الطريق فجلس على الأرض ولم يتحرك حتى نقله

الاسعاف الى المستشفى ، وعاش بعد هذه الأزمة أكثر من عشرين عاماً – كيف يكون الوضع إذا لم يشعر المريض بألم ، وقد يحدث ذلك لبعض المرضى فلا يشعرون بأى ألم بالرغم من انسداد الشرايين التاجية ، بعد ذلك أليس الألم رحمة للمريض .

أتذكر قول شوقى فى مسرحية مجنون ليلى – عندما يلوم قيس شيطانه « الأموى» الذى يوحى اليه الشعر – هذا الشعر الذى شبب فيه قيس بليلى ، فَحُرِّمت عليه كتقاليد العرب :

إذهب فلست صالحاً   وأى شيطان صَلُحْ
كنت قرين السوء لى   وكنت شَرَّ من نَصَحْ

فيجيبه الأموى :

حَنانيك قيس أقِلّ العتاب   ولا تسكبن دموع الندم
تَفَرَّدْتَ بالألم العبقرى   وأنبغُ ما فِى الحياة الألم

تذكرت وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أنى سألت أستاذ اللغة العربية – كيف يكون الألم أنبغ ما فى الحياة !! .

– يا ابنى هذا رأى الشيطان ......

والآن قد فهمت وأدركت أن هذه هى الحقيقة ، وليست رأى الشيطان، فالألم بالرغم من قسوته ضرورة لحياة الإنسان .

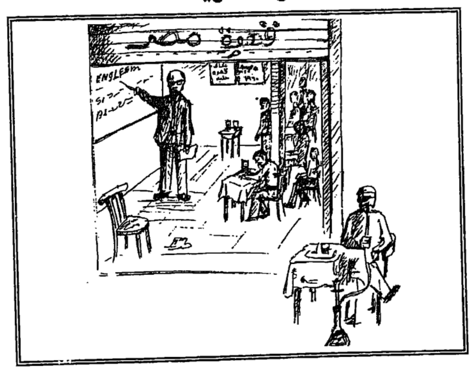
هل كان شوقى يدرى أن الألم من أهم مقومات الحياة ؟

أم هى عبقرية الشعراء فى نظرتهم للحياة ؟

إن الشعراء يرون ما لا يراه الناس ، ويشعرون بما لا يشعر به البشر .

رحم الله شوقى فقد كان فيلسوفاً سابقاً لزمانه .

امتحان الثانوية العامة



لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق

حافظ ابراهيم

الجو حار فنحن فى شهر يونيه سنة ١٩٦٠ ، الساعة ٧ صباحاً كنت فى الطريق الى المستشفى لاجراء عملية ففوجئت بوجود عشرات من الطلبة يجلسون فى مقهى بالشارع الرئيسى بالمحلة الكبرى ، وبعضهم واقف لعدم وجود مقاعد كافية ورأيت الأستاذ عتابى وهو أستاذ اللغة الانجليزية بالمدرسة الثانوية يكتب على سبورة والطلبة ينقلون ويرددون خلفه عبارات باللغة الانجليزية .

– ما الذى يحدث هنا ؟

– إنه يشرح لهم اجابات امتحان الثانوية العامة الذى سيعقد بعد ساعتين ؟

- هل هذا معقول وكيف حصلوا على أسئلة امتحان عام ...!

- يقولون أنهم حصلوا عليها من محطة اذاعة اسرائيل .

- هذا كلام غير معقول ، إنهم يضيعون وقتهم فيما لا يُجدى .

- لا ، انها الحقيقة : لقد اذاعت اسرائيل أمس الأول ، امتحان أمس وكان مطابقاً تطابقاً تاماً لورقة الأسئلة - وقد ضاع من لم يصدق ذلك - لذلك تجد هذه الأعداد الغفيرة من الطلبة هنا - وهم يذاكرون الأسئلة طوال ليلة أمس ؟

ما هذا الذى يحدث ! ما هذه المهانة التي وصلنا اليها !

أتذكر وأنا طالب الاحترام والرهبة للجنة الامتحان والمشرفين عليها - والالتزام التام بالنظام والسلوك الحضاري ....

علمت بعد ذلك أن الحكومة ألغت الامتحان ، فلم يكن هناك بديل لذلك ، وأعادوا الامتحان بعد شهرين ، فقد ثبت بما لا يقبل الشك أن الامتحان قد تسرَّب من أيدى غير نظيفة . إن الضبط والربط فى وزارة التعليم انهار تماماً ....

ومَـرَّت الأيام وتدهورت الأحوال من سيئ الى أسوأ ، ودخلت الامتحانات العامة عصر الغش الجماعى .

داخل اللجان يدخل الطلبة بأوراق مكتوبة للغش منها ، كما تتسرب الأسئلة بعد دقائق من توزيعها ، الى خارج اللجان ، وترسل إجابات يكتبها بعض المدرسين من خارج اللجان ، تُدْخل الى الطلبة بطريقة أو بأخرى .

كما تُعلَّق مكبرات الصوت خارج اللجان فى منازل أو سيارات متحركة تُملى اجابة الامتحان سؤالاً سؤالاً ولا يتحرك أحد ، وإذا حاول المراقب أن يضبط أحد الطلبة متلبساً بالغش ، أو أغلق النوافذ حتى لا تُسمَع الميكروفونات ، هدده الطلبة داخل اللجان بالأسلحة البيضاء وربما اعتدوا عليه ... فالغش حق مكتسب من وجهة نظرهم .

أما خارج اللجان فيعتدى الطلبة وأهاليهم على المدرسين وكثيراً ما أصابوهم بجروح نافذة – هل هذا هو المدّرس الذى قال فيه شوقى :

قم للمعلم وفّه التبجيلا : كاد المعلم أن يكون رسولا .

وفى بعض اللجان لا يستطيع مراقبو الامتحان الخروج من البلدة إلا بحراسة البوليس .

واشتهرت بعض اللجان فى المناطق النائية بسهولة وتسهيل وسائل الغش الجماعى ، فَحوّل اليها كثير من الطلبة المنحرفين مع أهاليهم لتأدية الامتحان بها ، علماً بأنه لا توجد علاقة لهم بهذه اللجان من قريب أو بعيد ، وتسمع من مراقبى الامتحانات قصصاً يندى لها الجبين تحدث فى هذه اللجان وهم عاجزون عن التعامل معها .

ووصل الحال أن فقد رجال الأمن السيطرة على إحدى اللجان ، فألغيت هذه اللجنة ونقلها المسئولون الى عاصمة الاقليم .

هل بعد كل هذا عندما يصل الى كلية الطب مثلاً بعض الطلبة بمجاميع عالية مع تواضع مستواهم العلمى ، هل نُصدّق أن مثل هذه المجاميع لم يحصلوا عليها بطرق ملتوية .

هل يحدث كل هذا فى وزارة التربية والتعليم ، أى تربية هذه وأى تعليم هذا !

حدثنى أحد كبار المسئولين فى الدولة وهو زميل الدراسة والشباب .

ما هذا الذى يحدث من الطلبة ، غش جماعى ! هل تتذكر كيف كنا نحترم ناظر المدرسة والمدرسين ونخشاهم . وكنا لا نجرؤ أن نمر من أمام المقهى الذى يتواجد فيه المدرسون .

نعم أتذكر ، ولكن هذا البلاء هو نتيجة حتمية لفساد الأخلاق الذى ساد المجتمع ، لقد نبت فى هذه الأرض الطيبة مجموعة من المنحرفين الغشاشين ، غشوا مواد البناء ، وغير البناء ، وحققوا أرباحاً بملايين الجنيهات وسرقوا البنوك وهربوا بأموالها الى الخارج ، ووصلوا بطرق

ملتوية الى مناصب قيادية ، ومراكز نيابية فأصبحوا يملكون الثروة والنفوذ ، وطفوا على سطح المجتمع فأصبحوا المثل الأعلى للجيل الذى لم يتلقَ قدراً كافياً من التربية يعصمه من الانحراف .

نعم لقد قلّد الجيل الناشئ هؤلاء المنحرفين فاتخذ الغش ، بدلاً من الدراسة والجهد ، طريقاً للوصول الى أهدافه ، ولازالت الميكروفونات تصيح ، ولازال الغش يمارس ولا زالت الأسلحة البيضاء تُشهر .

هل انهارت أخلاق الطلبة وأولياء الأمور الى هذا الحد ؟

أم هل دخل الى محراب العلم ، من لا يستحق أن يدخل الى هذا المكان الشريف ؟

إن صرح التعليم فى مصر عريق ، دخلت مصر به عصر التنوير – بناه على باشا مبارك منذ أكثر من مائة عام ، وكان بمصر مدارس عالية فى الطب والهندسة والعلوم والآداب قبل كثير من دول العالم المتقدمة .

نعم ، كانت عندنا مدارس عالية قبل دولة اليابان ، وكانت القيم الأخلاقية مبدءاً ثابتاً فى كل مراحل التعليم هل سنفقد هذا التراث العريق ؟

لقد دَقّ ناقوس الخطر ، وربما يمتد هذا البلاء الى الجامعات ، ولا ولا بد من تدخل حاسم ، لم يحدث الى الآن .

سوف يصل مثل هؤلاء الطلبة يوماً ما الى مراكز قيادية ، وإذا تَحكّم فى أمور الناس من بدأ حياته بالغش ، فقل على مصر السلام .

عـزة النفـس



الطب مـهـنة حـرة ، والطبـيب من حـقـه أن يتـقـاضـى أتعـابه التى حددها – ولكن الطب مـهنة انسانية ولا يـجوز فيهـا ما يجوز لغـيرهـا ، فعلى الطبـيب أن ينقص أتعـابه أو يتنـازل عنهـا ، إذا شـعـر أن المريض غـيـر قـادر على الدفع . أمـا فى الحـالات العـاجلة فـلا يـصح أن يطالب بأتعـاب مـسـبـقـة ، فـهى حـالات طارئة فـوجئ بهـا الانسـان ولم يعمل حسابها ، وله بعد شفاء المريض أن يطالب بأتعابه وبدون ضـغـط .

وقد عَـمِلْت فى هذا المجال سنوات طـويلة وكان المرضـى مـقدرين لما قمنا به ، ويدفـعون الأتعاب بعد شـفائهم بل ويصـرّون على دفـعها . وإذا كانت هـناك سلبيات نادرة ، فلا يصح أن يغيِّر الطبيب من سلوكه ومن مبادئه . ورأيت فى بعض المرضى البسطاء عزة النفس ، فهم لم يقبلوا مطلقاً أن أتنازل لهم عن بعض الأتعاب :

أجريت عـملية خطيرة لأحد المرضـى وكان رقيق الحـال ، وبالرغم من الرعاية والعلاج فقد توفى بعد أسبوعين .

ومرت أسابيع وفوجئت بزوجته تحضر الى عيادتى وتعتذر عن تأخرها – حضرت لتعطينى أتعاب العملية وتصرّ على دفعها وقدمت لى الأتعاب من عملات صغيرة من الواضح أنها جمعتها بصعوبة .

– « أنت قمت بالواجب والأعمار بيد الله » – وأريد أن تكون ذمة زوجى خالصة .

– لا سيدتى أنا لا أريد أتعاباً واعتبرى ذلك مساهمة منى فى هذه المحنة .

– هل أنت مسامح فى ذلك بنفس راضية .

– نعم .

فشكرتنى وانصرفت .

مرت على هذه الواقعة سنوات طويلة ولكننى لم أنسَ عزة النفس التى تملكها هذه السيدة البسيطة .

سلوك بعض المرضى

غريب أمر هذا الانسان الذى يسعى لأن يضر نفسه عمداً – ولِمَ لا – ألا ينتحر أحد الناس ويفقد حياته كلها .

هل يتلذذ بهذا العذاب « السادية » ولكن ما ذنب الطبيب الذى يحاول هذا المريض أن يخدعه .

–رجل ضرير عنيف، ذو شخصية عدوانية ، عُملَت له أشعة بالمستشفى ، فظهرت حصوات كبيرة فى منطقة المثانة وهو يلح أن تُجرى له عملية – شككنا فى الأمر ، وبالبحث وجدنا أن هذه الأحجار وضعها المريض عمداً فى الشرج لكى تظهر وكأنها حصوات بالمثانة .

–ومريض أخر لصق حصوات بمشمع لاصق على ظهره فى منطقة الكلية لكى يوهمنا انها فى الكلية .

ولما تظاهرنا بأننا سنعمل له جراحة لاخراجها ، رحب بذلك .

وهناك نوعية أخرى تضلل الطبيب لكى يُجرى لها جراحة حتى تسبب الضرر للخصوم .

كنت أعمل فى بلدة فى الريف وحضر اليّ مجموعة من الرجال :
–عاوزين نعمل عملية زائدة للست دى .

– ولكن بالكشف لم أجد أى أعراض لالتهاب الزائدة .

– ولكننا سندفع لك أتعابك .

– لا هذا غير جائز –كيف أجرى عملية بدون مبرر .

والمريضة مستسلمة كأنها شاه ستذبح .

وسمعت بعد ذلك أن العملية أجريت لها فى مكان ما ، والسبب كان غريباً – فقد ضرب أحد الأشخاص هذه السيدة ، وفُرِضَ عليه

«حق عرب» - كذا إذا عولجت ، وكذا إذا أجريت لها عملية . ودفعت المريضة أتعاب العملية ، ودفع المُعتدِى حق العرب وهو أكثر بكثير « ورزق الهبل على المجانين » كما يقولون .

- وهذا نوع آخر من التصرف الغريب لبعض المرضى : مريض يحضر إلىّ فأحدد له أتعابَ العملية التى سأجريها له ، فأفاجأ بقوله وهو يتعالى - لماذا تحدد لى هذا المبلغ أنا كنت سأعطيك ضعفه .

- لا يا سيدى ، هذه هى أتعابى وأنى أحددها لك كى تعيد حساباتك ، وإذا كنت قد طلبت منى أن أخفضها لسبب مقنع لخفضتها لك - أما أن تدفع زيادة فأنا لا أقبل ذلك منك أو من غيرك - فأنا لا أتقاضى إحساناً ، فلم يلبث أن اعتذر عما قاله .

وهذه الأمثلة من المرضى نادرة ولكنها موجودة،ولا بد أن يكون الطبيب منتبهاً لمثل هذه المواقف .

المريض غالباً على حق

أثناء مدة عملى كطبيب مقيم كنت أفتش على حجرة استقبال المرضى وكان بها عدد من أطباء الامتياز وبين أيديهم مريضاً يوسعونه تهكماً ورفضاً لما يقوله .

« والله يا دكتور الدودة دى نزلت من مجرى البول » وكان فى يده دوده اسكارس طولها حوالى ١٥ سم .

– ايه الموضوع « مش مصدقنِّى يا بيه وأنا تَعْبَان » .

فحصت المريض بدقة ، وفحصت بوله فاتضح لى أن المسكين مصاب بسرطان متقدم فى الشرج اخترق المثانة فعبرت هذه الدودة ، التى تعيش فى الأمعاء ، عبرت الشرج الى المثانة وخرجت من مجرى البول ودودة الاسكارس دودة نشطة سريعة التجول ، فطيبت خاطر المريض وأدخلته المستشفى وعاتبت الأطباء على تصرفهم .

وبعد سنوات من هذه الحالة حضرت الىَّ فتاة قروية عمرها ١٥ عاماً تشكو من سلس بولى منذ ثلاثة أشهر . وبفحصها وجدت ناصوراً بولياً بين الحالب والمهبل ، وهذا الناصور لا يحدث فى مثل هذا العمر ، فالفتاة لم تحمل ولم تلد ولم يكن قد أُجرى لها أى جراحات من قبل .

وقد أصرَّت الأم على أن هذا السلس البولى ظهر منذ ثلاثة أشهر فقط ، فثرت عليها وأخبرتها أن هذا السلس لا بد أنه موجود منذ ولادتها نتيجة لعيب خلقى .

فما لبثت أن صدَّقت على كلامى ، حتى لا أثور عليها .

وعندما أجريت لها جراحة لاصلاح هذا الوضع تبيَّن لى أن هذا الناصور حديث الحدوث ، لإصابة شديدة بالبلهارسيا فى الحالب ، حدث حوله خراج صغير ونتج عنه هذا الناصور .

يجب أن يتروى الطبيب فى تحليل شكوى المريض ، حتى يصل الى الحقيقة فإن المريض غالباً على حق .

الطبيب الفيلسوف الشاعر ابن سينا

معجزة الأمة الاسلامية الشيخ الرئيس أبو الحسن بن عبد الله بن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) . ولد فى أخشنة بالقرب من بخارى ودرس اللغات والعلوم والفلسفة والطب ، وألّف كتابه القانون فى الطب الذى أصبح للشرق والغرب دستوراً لدراسة الطب ، وأُعتبر المرجع الأول لجامعات فرنسا وايطاليا حتى القرن السابع عشر . كما ألّف كتاب الشفاء فى الفلسفة الذى يعتبر أعظم ما كتب فى القرون الوسطى ، ومازالت الى الآن صورة لابن سينا معلقة فى القاعة الكبرى بكلية الطب بجامعة باريس .

أول معرفتى بابن سينا عندما كنت طالباً ، وقد عرفته كشاعر مُبدع ، وقد أعجبتنى قصيدته فى وصف النفس (الروح) ، خاطبها كما يخاطبها فيلسوف يبحث عن حقيقتها فرآها تزداد غموضاً كلما ازداد بحثاً - جاء فيها :

هبطت اليك من المحل الأرفع	وَرْقَاءُ ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف	وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما	كرهت فراقك وهى ذات تفجع
ألفت وما سكنت فلما واصلت	ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى	ومنازلا بفراقها لم تقنع
......	....

وقد عارضه أمير الشعراء أحمد شوقى ، بقصيدة فى نفس الغرض ، من روائع ما كتب شوقى فى الشعر الفلسفى ، فلم يستطع أن يصل الى حقيقة الروح ورآها تزداد غموضاً على غموض جاء فيها :

ضمي قناعك يا سعاد أو ارفعي ... هذى المحاسن ما خُلِقْنَ لبرقع

ليس الحجاب لمن تعز مناله ... إن الحجاب لهين لم يمنع

أنتِ التى اتخذ الجمال لعزه ... من مظهر ، ولسره من موضع

ذهب (ابن سينا) لم يفز بك ساعة ... وتولت الحكماء لم تتمتع

نظر (الرئيس) الى كمالك نظرة ... لم تخل من بصر اللبيب الأروع

فرآه منزلة تَعرض دونها ... قصر الحياة وحال وشك المصرع

لولا كمالك فى الرئيس ومثله ... لم تحسن الدنيا ، ولم تترعرع

هذا مقام كل عز دونه ... شمس النهار بمثله لم تطمع

(فمحمد) لك (والمسيح) ترجّلا ... وترجلت شمس النهار (ليوشع)

ما بال (أحمد) عيّ عنك بيانه ... بل ما (لعيسى) لم يقل أو يدع

لما نعيت الى المنازل غودرت ... دكا ومثلك فى المنازل مانعى

ضجت عليك معالما ومعاهدا ... وبكت فراقك بالدموع الهُمَّعِ

لم يحصل ابن سينا ولا شوقى ولا أفلاطون ولا غيرهم الى كنه الروح ، فهم يشعرون بشئ لا يستطيعون معرفته .

إن الروح هى سر الحياة لا يعلمها إلا الخالق سبُحانه وتعالى .

قال تعالى : « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » صدق الله العظيم .

وقد قرأت حديثاً ، قصيدة شعرية طويلة لابن سينا فى وصف النبض ، لم يترك فيها نبضاً غير منتظم إلا وصفه بدقة.

أما معرفتى بابن سينا الطبيب فقد جاءت بعد ممارستى لمهنة الطب سنوات طويلة . فعندما قرأت تاريخ الطب العربى ، وجدت ثروة علمية ضخمة تركها الأطباء العرب ، وقد وجدت فى كتاب القانون لابن سينا معلومات طبية أصيلة عن السكتة الدماغية وشلل الوجه واليرقان والطريقة العلمية السليمة لفحص البول .

أمـا فى المسالك البـولية ، فـقـد وجدت الكثـير ، وأهم مـا جاء كـان وصـف دقـيق لتشـريح الحـالب ودخـوله فى المثانة مع وصـف تفصـيلى لوظيفـته الصـمـامـية ، وهـذه المعلـومات لا تـختلف كـثيـراً عن المعلـومات التى نعلمها الآن .

٥٠٨ المقالة الاولى من الفن التاسع عشر

واحدة ولا تكون الحاجة الى نفضها متصلة كما يعرض لاصحاب تقطير البول وذلك الجوبة هى المثانة وخلقت عصبية من عصب الرباط لتكون اشد قوة وتكون مع الوثاقة قابلة للتمدد منبسطة من تكرزة لتلقى مائية فاذا امتلأت افرغ ما فيها بارادة تدعو اليها الضرورة وفى عنقها لحمية تحبس بمجاورة العضلة وهى ذات طبقتين باطنتهما فى العمق ضعف الخارجة لانها هى الملاقية للمائية الحادة فتلطف الخالق بحكمته فى جلب المائية اليها وجذب المائية عنها فاوصل اليها الحالبين الآتيين من الكليتين فلما وافياها فرق المثانة طبقتين وسلكهما بين الطبقتين يمتدان أولا فينفذان فى الطبقة الاولى ثم يمتدان بين الطبقتين سلوكا مقدرا ثم يغوصان فى الطبقة الباطنة مفضيين بافواههما الى تجويف المثانة فيصبان فيها الفضلة المائية حتى اذا امتلأت المثانة وارتكزت انطبقت الطبقة الباطنة على الطبقة الظاهرة منطبقة اليها من الباطن والقعر انطباقا يظنان له انهما كطبقة واحدة لا منفذ فيها ولذلك لا ترجع المائية والبول عند ادارة كبار المثانة الى خلف والى الحالبين ثم خلق لها البارئ جلت قدرته عنقا دافعا للمائية الى القضيب معوجا كثير التعاريج لاجلها لا تستنظف المائية بالتمام دفعة خصوصا فى الذكران فانه فيهم ذو ثلاث تعاريج وفى النساء ذو تعريج واحد لقرب

وكمـا نرى فقد وصـف ابـن سـينا الوظيفـة الصـمامـية للـحـالب قبل «يانج» بتـسـعـمائة عـام ، وكان « يـانج» قد وصـفهـا سنة ١٨٩٨ . والطب الأوربى ينكر عـمـداً فـضل المدرسـة الطبـيـة العـربيـة التـى علّمت أوربا وثقـفتـها ، ولعل ذلك يرجع الى الـحـمى المعـادية لكل مـا هـو عـربى التى نبتت فى القرن الثالث عشر الميلادى .

فالطـبـيب إبن النفيس الدمشـقى هـو أول من وصف الدورة الدموية الرؤية قبل هـارفى Harvey بأربعة قرون .

ووضـع ترند ليـنبـورج نـسـب اليـه فى أوائل القـرن العـشـرين وهـو من ابتكار أبو القـاسـم الزهـراوى رائد الجـراحـة العـربـية الذى عـاش فى الأندلس فى القـرن العـاشـر المـيلادى . وكـنت قـد نشـرت فى أبحـاثى ، فـضـلاً عن وصـف الوظـيـفة الصـمـامـية لـلـحـالب لإبّن سـينا أن تفـتـيت

حصاة المثانة وصفها أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فى القرن العاشر الميلادى قبل التاريخ المعروف بتسعمائة عام ، وان استخراج حصوات المثانة عن طريق جدار البطن ، وليس عن طريق المهبل ، أجراها الزهراوى منذ ألف عام ، كما وصف الزهراوى طريقة مبتكرة لتفتيت الحصاة المنحشرة فى مجرى البول الأمامى (كتاب التصريف) ، وعندما نشرت هذه الأبحاث وألقيت محاضرات فيها (داخل وخارج مصر كان لها وقع علمى كبير) .

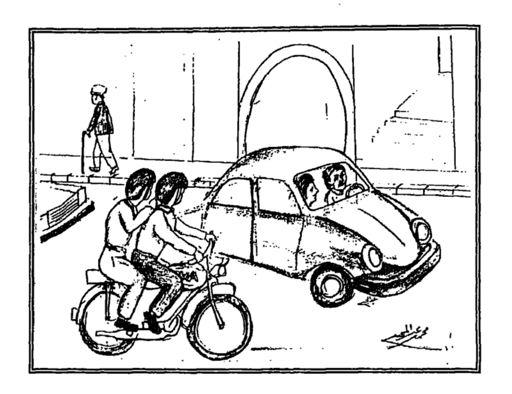
أما الأطباء العرب فكانت الأمانة العلمية واحترامهم لمن سبقهم من العلماء هو مبدأ ثابت لا يحيدون عنه ، ولعل ذلك يرجع الى تربيتهم الاسلامية التى تتسم بالأمانة والصدق .

كانوا يقولون « قال الفاضل أبوقراط والفاضل جالينوس» .

أما الرازى ، فعندما يرجع الى من قبله من العلماء ، يذكر اسمهم وأقوالهم بدقة وأمانة علمية كالمقالات الطبية الحديثة – وعندما حصل على معلومات ولم يتوصل الى مؤلفها قال عنها « انها لمجهول» ولم ينسبها الى نفسه « كتاب الحاوى» الجزء السابع .

هذه نبذة صغيرة عن الرئيس ابن سينا ، الذى بدأت معرفتى به شاعراً ، وانتهى تعارفى عليه عالماً وفيلسوفاً وطبيباً ومعلماً للبشرية .

دكتور زيجفريد فيجنر
Dr. Zigfred Fegner



فى الستينات كنت أعمل بمستشفى فريك هاين ببرلين الشرقية، والمستشفى يقع فى أطراف برلين ومحاط بحدائق وغابات وجبل صغير على قمته حديقة جميلة .

والمستشفى من الطراز القديم ووسطها حديقة تحيط بها المبانى وهى قريبة الشبه جداً بمبنى مستشفى كلية طب الاسكندرية القديم الذى تعلّمنا فيه ، وربما يكون تصميم بناء مستشفى الاسكندرية مأخوذاً من الطراز الألمانى ، فقد كان مدير مستشفى الاسكندرية فى أوائل القرن طبيباً ألمانياً ، كما أن الطبيب الألمانى الشهير كوخ كان يعمل بمستشفى الاسكندرية ، واكتشف فيها ميكروب الكوليرا . عندما وصلت الى المستشفى أعطونى حجرة فى منزل الأطباء لأقيم

فيها ووجدت صعوبة كبيرة فى التفاهم مع الاداريين فهم لا يتكلمون إلا الألمانية ، وكنت لا أعرف من الألمانية إلا بعض الكلمات والجمل .

وفى صباح اليوم التالى ، ذهبت الى قسم المسالك وقابلت رئيس القسم دكتور ميبيل ، وكان يتكلم الانجليزية ، أما باقى الأطباء فلا يتكلمون غير الألمانية . قدم لى أحد الأطباء نفسه وتكلم معى بلغة انجليزية سليمة .

– أنا الطبيب المقيم زيجفريد فيجنر . وانى أرحب بك هنا .

– يسرنى أن أتعرف بك ، ولكن كيف أمكنك اجادة اللغة الانجليزية دون زملائك .

– انى تعلمت مبادئ اللغة بالمدرسة ، وقرأت بعد ذلك كثيراً ، كما انى مواظب على الاستماع الى البرنامج التعليمى من محطة الاذاعة البريطانية.

– هل يمكنك مساعدتى أحياناً فى التعرف على المدينة وشراء بعض المتطلبات .

– أنا تحت أمرك فى أى شئ تطلبه ، ويسرنى اصطحابك الى أى مكان .

كان رئيس القسم شخصية قوية ، والقسم كان على درجة عالية من الانتظام وكفاءة الأداء ، وكانت خبرة القسم كبيرة فى جراحات مجرى البول .

وبعد انتهاء العمل أخذنى فيجنر الى وسط المدينة فاشتريت كل ما أحتاج اليه ، ثم أشار الى مبنى كبير وقال لى بحسرة :

– هذه هى محطة المترو الذى يتجه الى برلين الغربية– يمكنك طبعاً أن تذهب الى هناك فى أى وقت تشاء ، أما نحن فلا يمكننا ذلك .

انتظمت فى العمل فى القسم وكان العمل بالقسم يبدأ من الساعة

٧,٣٠ صباحاً الى الرابعة بعد الظهر – التزام تام وأداء متميز ومعاملة انسانية رقيقة للمرضى واجتماعات علمية يومية ...

أتمنى أن يأتى اليوم الذى نعمل به بهذا الأسلوب فى مصر .

طلب منى رئيس القسم أن أعطى محاضرتين فأعطيت محاضرة عن خبرتنا فى جراحة الحصوات ، ومحاضرة أخرى عن مضاعفات البلهارسيا . وساعدنى فيجنر فى ترجمة المصطلحات العلمية .

توطدت علاقتى بفيجنر ، فكثيراً ما كان يأخذنى أيام العطلات الأسبوعية الى أنحاء المدينة وكنت أركب معه على الموتوسيكل ، فلم يكن يمتلك سيارة ، كما دعانى هو وزوجته الى منزل والدتها فى الريف فأمضيت هناك يومين فى الريف الألمانى الجميل .

وكثيراً ما كنت أزوره فى منزله القريب من المستشفى وكانت والدته تعيش معه لرعاية ابنه الصغير وكان عمره أقل من سنة ، كما كانت له ابنة عمرها ٥ سنوات ، أما زوجته فقد كانت تعمل طبيبة فى مستشفى الأمراض النفسية.

كان فيجنر سعيداً أيضاً بتعارفه علىّ ، فقد أتحت له فرصة التحدث بالانجليزية يومياً ، وهذه الفرصة لم تتح له من قبل – كما كنت أحضر له ما يحتاج اليه من برلين الغربية .

ذهبت معه الى الحديقة التى تقع فوق الجبل . قال لى :

هذا ليس جبلاً طبيعياً – بعد الحرب جمعوا ما تبقى من البيوت المهدمة بما فيها من موتى ، وألقوها فى هذا المكان فصارت جبلاً ، وسقطت عليها الأمطار فنبتت فيها النباتات والأشجار فأنشأوا فيها هذه الحديقة.

شعرت برهبة من المكان وتذكرت قول أبو العلاء المعرى :

« خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد » .

لاحظت وأنا فى الحديقة وجود عدد كبير من الأمهات مع أطفالهن ، ولفت نظرى عدم وجود الأزواج مع كثير منهن - ولما استفسرت من فيجنر عن هذه الملاحظة أجاب ضاحكاً :

-ان ثلاثين فى المائة من الأمهات فى بلدنا غير متزوجات . والدولة تعطى لهن علاوة للأطفال !!

وفى أحد الأيام طلب فيجنر منى أن نزور فرولين « الآنسه» ...

ممرضة العمليات فى المستشفى ، لأنها وضعت ابناً .

- هل هى متزوجة .

- لا .

- انى أعتذر عن هذه الزيارة فتقاليدنا تمنع ذلك - فلم يعلق على كلامى ...

وفى أحد الأيام حضر الى حجرتى وكان فى حالة نفسية سيئة ، قلت له :

- ما الذى حدث ؟

- إن زوجتى تحب رجلاً آخر .

- ربما تكون مخطئاً .

-لا أنا متأكد ، فقد أخبرتنى هى بذلك وحددت لى هذا الرجل وأنت تعرفه !

- من هو ؟

- هو زميل لها وكان مدعواً معك فى القرية عند والدتها .

- نعم تذكرته ، « فقد أوصلناه بسيارته الى القرية ومكث معنا يومين هناك» .

لكن ماذا ستفعل ؟

– هى مصرّة على الطلاق ، وفى هذه الحالة سوف تأخذ الشقة والأطفال ، وسوف تعود والدتى الى بلدتها « ليبزج » ، وهى حزينة جداً وقد تركتها وهى تبكى لأنها ستفارق الأطفال .

– تأخذ الشقة ، وأين ستعيش انت ، هناك أزمة كبيرة فى المساكن ! .

– لا أعلم ما سأفعله .

– يمكنك أن تقيم معى فى حجرتى .

– لا ، لن تسمح لى المستشفى بذلك .

ما هذا الذى يحدث هنا ، هل هذه هى الحرية التى أعطوها للمرأة حتى تخرج عن جميع القيم والمبادئ الأخلاقية ... .

انها أشبه ما تكون بأنثى العنكبوت ، إذا اطمأنت أنها ستنجب ، انقلبت على زوجها ، وإذا لم يهرب من البيت فوراً قتلته والتهمته .

فى يوم واحد أصبح الزميل فيجنر بلا زوجة وبلا أسرة وبلا منزل ولا يعرف أين سيعيش . هل هذا الضياع هو نتيجة لابتعادهم عن التعاليم السماوية ؟

لقد زرت الكنيسة أحد أيام الأحد ، فلم أجد فيها أحداً ..

وقفت بجانب فيجنر فى محنته – أخذت زوجته الشقة والطفلين والرجل الجديد ، وترك فيجنر ووالدته المنزل ، كل هذا حدث فى أسبوع، أسبوع واحد .

أى أن هذا الرجل حل محل فيجنر فى كل شئ ، وكنت عندما أركب الموتوسيكل خلف فيجنر نرى زوجته السابقة تنزل من المنزل ومعها الزوج الجديد وتركب السيارة بجانبه – فقد كان يملك سيارة .

سألت ، فيجنر :

س : كيف تَزَوَجْتِ بهذه السرعة ؟

ج : لا أعتقد أنهما قد تزوجا .

س : وكيف يعيش معها هكذا أمام الناس ؟

ج : لا أحد يهتم بذلك هنا ....

وقد تفضل الزوج الجديد وكان فيجنر يطلق عليه « الرجل الآخر» تفضل وأعطى لفيجنر مسكنه وهو يبعد كثيراً عن المستشفى - ربما بدافع الزمالة . والمنزل عبارة عن حجرة واحدة ومنافعها،ولكن لا بأس فهو مسكن على أى حال . وبالاتفاق مع زوجته أخذنا نصف أثاث شقته السابقة ونقلناه الى المنزل الجديد .

- قال فيجنر سوف أترك لها التلفزيون لأن نصفه لها ، وتَعَهَدَتُ بأن تسدد لى نصف ثمنه .

- كيف تعيش وحدك بدون تلفزيون ، خذه وسدد لها نصف ثمنه عند الميسرة . لماذا هذا التساهل معها ، انها لا تستحق شيئاً . فاقتنع بكلامى وأخذ التلفزيون . . .

وفى المساء اتصلت زوجة فيرجر بى تليفونياً ، واحتجت احتجاجاً شديداً ، فربما فهِمت أننى المحرض له على أخذ التلفزيون ...

فلم أُعِر احتجاجها اهتماماً .

وكان فيجنر مندهشاً لما أقوم به .

- كيف تعمل كل هذا الجهد معى ، فى الوقت الذى لم يقف بجانبى أحد من زملائى هنا .

- لا تتعجب هذه هى أخلاق الشرق ، فأنا لم أشعر اننى عملت أكثر من الواجب .

أصبح فيجنر بلا أسرة ، فكان يحضر الىّ كل يوم بعد العمل ، وتعرف بكل أصدقائى من المصريين فأصبح كفرد منا ، وكان عندما يسألوننى عنه ، لا ينسوا على سبيل الفكاهة ، أن يسألوا عن « الرجل الآخر» أى الذى تزوج زوجة فيجنر » .

بعد فترة عدت الى مصر وظل اتصالى بفيجنر مستمراً عبر البريد .

وفى سنة ١٩٧١ سافرت الى برلين لحضور مؤتمر عالمى لنقل الكلية،وحضر المؤتمر معى الأستاذ الدكتور محمد الغراب وتقابلت مع فيجنر وباقى الزملاء . ورحب بى ترحيباً حاراً وقدمنى الى زوجته الجديدة وهى طبيبة أسنان ووالدها يعمل أستاذاً بكلية الطب ، ولها شقيقة توأم تشبهها تمام الشبه وهى طبيبة فى قسم المسالك البولية — وكان سعيداً جداً فى حياته الجديدة .

استمر اتصالى به حتى سنة ١٩٧٣،ثم انقطع فجأة عن الكتابة الىّ أو الرد على خطاباتى .

ثم علمت أنه هرب هو وزوجته الى ألمانيا الغربية وانقطعت أخباره عنى تماماً . وفى سنة ١٩٨٩ أى بعد ١٦ سنة فوجئت بخطاب منه يخبرنى أنه حضر الى الاسكندرية لمدة يوم واحد فى رحلة بحرية ولم يستطع الاتصال بى أو بالدكتور الغراب ، وهو يعيش هو وزوجته فى بلدة صغيرة بالقرب من ميونيخ وله عيادة ناجحة .

دعانى لكى أزوره ، ورتب لى لقاء مع رئيس قسم المسالك فى جامعة ميونيخ لأزور القسم وألقى هناك محاضرتين .

ذهبت الى كلية طب ميونيخ ، ومستشفى الجامعة هى أكبر مستشفى فى أوربا « جروس هادرن » ، ورحبوا بى هناك وألقيت محاضرتين فى قسم المسالك البولية . وجاء فيجنر ودعانى الى منزله فأمضيت معه يومين، وقص علىّ هو وزوجته قصة هروبهما من برلين الشرقية — هربتهما عصابة محترفة وأخذت منهما عشرين ألف مارك غير مبلغ أخر دفعاه بعد نجاح هروبهما الى ألمانيا الغربية . هربت هى أولاً ، وأبلغ البوليس عن اختفائها ، فوضعوه تحت المراقبة الدقيقة ، ومبالغة منه فى تمثيل دوره،طلّق زوجته رسمياً لمغادرتها أرض الدولة .

وبعد شـهرين هرب هـو أيضـاً تاركاً وراءه كل مـا يملكه من منزل وأثاث وسيارة وحساب فى البنك . إن حـرية الانسـان لا يعادلها شئ فى الوجود .

أرسلته العـصـابة الى بـرلين الغـربية ، ولم يكن مـعـه إلا عـشـرة مـاركات ، وكـان أول شئ فـعله هـو اتصـاله تليـفونيـاً برئيـسـه المباشـر دكتـور براون وأبلغـه بـهـروبه ، وطلب منه أن يدبر من يـحل مـحله فى النوباتچية الليلية !

ان احترام العمل ومسئوليته هـو مبدأ ثابت عند الشعب الألمانى ...

ثم اتصل بأحد أخـصائى المسالك البولية فى برلـين الغربية ، بدون سـابق معـرفة ، وطلب منه المسـاعدة ، فـأعطاه مـبلغاً كـافيـاً من المال، وأوصله الى هيـئة رسـمـية سـاعدته ونقلته الى مـيونيخ ، وألـحقتـه بعمل بمستـشفى هـو وزوجته التى قـابلته هناك . ومازال يجـاهد حتى أمكنه أن يسـتـقل بعـمله فى عـيـادة خـاصـة فى بـلـده قـريبـة من مـيـونيخ ، وتحـسـنت أحـواله المالية كثـيـراً - وقام بـتسـديد كل مـا فـرضتـه عليـه العصابة بعد هروبه .

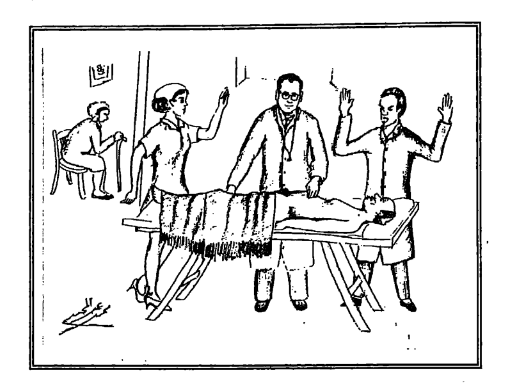
أما ابنه وابنته فما زالا يعيشـان فى برلين الشرقية .

تركتـه وأنا سـعيـد بما حقـقه بعد هـروبه ، وتمنيـت له دوام النجاح كما تمنيت أن يزول هذا البلاء الذى استمر طويلاً وأذل الألمان ، تقسيم ألمانيا وسـور برلين الذى طالما عبرته ذهاباً وإياباً .

هـذا السـور الرهـيب الذى فقـد فيه كـثيـر من الألمان حيـاتهم ، عند مـحاولتهم اجتيازه هـرباً من الشيوعية .

«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما...»

صدق الله العظيم



كنت أعمل فى مستشفى فريد رش هاين فى الستينيات ، حضر الى العيادة الخارجية مريض مسن لا يكاد يرى ولا يكاد يسمع ، ومعه زوجته فى مثل سنه ومثل حالته . كشف عليه الطبيب النائب وأبلغنى أنها حالة سرطان متقدم بالمثانة اخترق جدار البطن وظهر منه ، فلما فحصت المريض وجدت أنها حصاة كبيرة جداً فى حجم البرتقالة اخترقت جدار المثانة وجدار البطن وظهرت منه – وهذه حالة لم أرها ولم أسمع عنها من قبل .

كيف يترك هذا المريض حتى تصل حالته الى هذه الدرجة – غالباً

حدث خراج خارج المثانة واخترق جدار البطن والمثانة ، فحدث ناصور بولى مع ظهور الحصاة خلال جدار البطن .

أبديت دهشتى لرئيس القسم !

– كيف يحدث مثل ذلك فى بلد متحضر بل قمة فى التحضر !

أجابنى رئيس القسم :

ان هذا الرجل المسن وزوجته يعيشان وحدهما وكما ترى لا حول لهما ولا قوة .

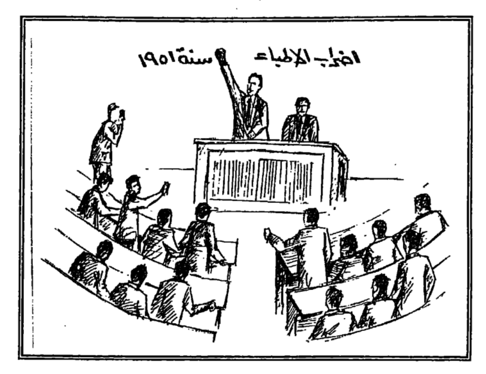
أما أبنائهما فهم يعيشون بعيداً ، ولا توجد هنا علاقات أسرية تربطنا كما تربطكم فى الشرق – لا أحد يرعاهما –والرجل لا يكاد يحس بأى ألم ، ولم يحضر الى المستشفى قبل الآن ، بل ولم يطلب استشارة طبية قبل اليوم .

واستطرد رئيس القسم : انى لا أتمنى أن أعيش حتى أبلغ سن هذا المريض ، فمن يرعانى؟

هل هذا هو مجتمعهم المتحضر ! أكلما زادت المدنية انعدمت القيم الانسانية . ان العلاقات الانسانية والأسرية التى تربط المجتمع العربى وخصوصاً المجتمع المصرى لا نظير لها فى العالم . ان احترام الوالدين ورعايتهما هو مبدأ ثابت عند كل مصرى بل هو واجب مقدس « فلا تَقُل لَهُمَا أُفٍ ولا تنهرهُمَا وقلْ لَهُمَا قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذُّلّ من الرَّحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّيانى صَغِيراً » صدق الله العظيم .

الأستاذ الدكتور رشوان فهمى

نقيب أطباء مصر (من ١٩٥٧ الى ١٩٦٦)



ما مات من أحيا أصالة أمة وأعـزّها بكرامـة الانسـان

أستاذ العيون فى كلية طب الاسكندرية ونقيب أطباء مصر .

تعود بى الذاكرة لسنة ١٩٥١ ، عندما كنت نائباً بقسم الجراحة، وكان الدكتور رشوان مدرساً بكلية طب الاسكندرية . الحياة السياسية مضطربة ومصر تموج بأفكار سياسية متضاربة ومتطاحنة، شباب مصر يتطلع الى حياة مثالية – فنحن غير قابلين للأوضاع السياسية والاجتماعية التى نعيش فيها .

ولم نكن ندرى أن العدالة المطلقة لا توجد إلا فى السماء ، وأن المدينة الفاضلة لا توجد على هذا الكوكب .... ويمكننى أن أردد الآن قول الشاعر :

« رب يوم بكيت منه فلما صرت فى غيره بكيت عليه»

كانت مرتبات الأطباء ضئيلة والحكومة لا تستجيب ، فليُضرب الأطباء ولكن كيف يكون ذلك ؟ نعم نُضرب عن العمل فى العيادات الخارجية بالمستشفيات ، ولكن لا بد أن يستمر العمل فى الحالات العاجلة (حالات الاستقبال والحوادث) فلا يمكن أن يمتد الاضراب اليها .

بدأت الفكرة فى منزل الأطباء النواب بطب الاسكندرية بين الزميل الدكتور على نوفل وبينى .... اقتنع الأطباء النواب والامتياز بالاضراب ولكن لم يكن هذا كافياً – وهنا ظهر الدكتور رشوان فهمى فأعطانا دفعة قوية وأقنع أعضاء هيئة التدريس فأيدوا الاضراب – وكوّنا لجنة ، سافر كل عضو منا الى عدد من المحافظات داعياً الى الاضراب فأضرب جميع أطباء مصر .

أتذكر انى سافرت الى محافظات القنال والسويس والاسماعيلية بورسعيد . دعونا الى مؤتمر صحفى بالكلية – تكلم رشوان فهمى بشجاعة وطلاقة « إن المبالغ المالية اللازمة لاصلاح حال الأطباء أقل مما يصرف على حفلات عيد ميلاد الملك .

لقد آن لنا أن نتكلم ...

ثم دعانى الى الكلام فقلت إن المبالغ اللازمة لنا أقل من الميزانية التى اعتمدتها الحكومة للانفاق على سيارات ويخوت الخاصة الملكية ....

وكان وزير الصحة عبد الجواد حسين ، قد هدد الأطباء بأنه سيقدم للنيابة كل من يضر بحياة المرضى ، فبينت للصحافة أسلوب الاضراب ، الذى لا يرفض علاج الحالات العاجلة بل ويصّر على علاجها ، وقدمت لهم قائمة بالعمليات التى أجريت بالمستشفى فى اليوم السابق للمؤتمر .

ثم قلت : ونحن نوافق على ما صرح به وزير الصحة ، لذلك أطلب تقديم الوزير للنيابة ، لأنه المسئول الأول عن الاضرار بحياة المرضى لعدم توفر العقاقير اللازمة للعلاج ، كما هو مثبت فى أوراق المرضى ، وكنا نحن الأطباء المقيمين نتبع إدارياً وزير الصحة ....

وفى اليوم التالى صدرت بعض الصحف وبها أخبار المؤتمر فى الصفحة الأولى « طبيب يطلب تقديم وزير الصحة للنيابة– مدرس بكلية الطب يعارض اهدار مال الدولة على الحفلات الملكية ....

كانت الحكومة التى تحكم مصر هى حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس ، انتظرنا أن يقبض علينا ، فلم يقبض علينا أحد ولم يستدعنا أحد – قمة الديمقراطية – ولكن قال لى الدكتور رشوان .

– أعتقد أننا أصبحنا من غير المرغوب فينا فى هذه الكلية – وأنت لاتزال نائباً ولا أعتقد انك ستُعيَّن هنا .

– فليكن ما يكون وسنستمر فيما بدأنا فيه ، فلا سبيل الى التراجع ... استمر الاضراب خمسين يوماً وعمَّ مصر كلها وتم الاصلاح .

ومرت الأيام وجاءت « حركة الجيش» ، فكان أول المؤيدين لها رشوان فهمى ، الذى اجتمع فوراً بالدكتور محمد الغراب والدكتور محيى الخرادلى المدرسين بكلية طب الاسكندرية وتم الاجتماع بمنزل الدكتور الغراب يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢ وأرسلوا تلغرافاً الى جريدة الأهرام باسم أعضاء هيئة التدريس بجامعة فاروق الأول يؤيدون فيه حركة الجيش ، كما أرسل الأطباء النواب والامتياز بمستشفيات جامعة فاروق الأول تلغرافاً مماثلاً – وقد نشر كلا التلغرافين فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وقد أذاعت محطة الإذاعة البريطانية ما كُتب فى تلغراف هيئة التدريس بعد ارساله بعدة ساعات، كان هذا أول تأييد لثورة ١٩٥٢ فبفتح الطريق الى عشرات ومئات من برقيات التأييد . ومرت الأيام وفى سنة ١٩٥٧

انتخب رشوان فهمى نقيباً لأطباء مصر وأعيد انتخابه سنة ١٩٦١ وأعيد مرة ثالثة سنة ١٩٦٥ بالرغم من محاربة الحكومة له ، وكان ينافسه في كل مرة طبيب من القسم الطبى للجيش ، لم ترتاح الحكومة لذلك خصوصاً سنة ١٩٦٥ ، فلقد أصبحت له شعبية ..

وفى سنة ١٩٦٦ نشرت جريدة الأهرام تصريحاً لرئيس الجمهورية يقول : « إننا نجحنا فى إدارة قناة السويس وفشلنا فى إدارة القصر العينى » وكان يعزو ذلك ويردد أن الفشل فى ادارة القصر العينى يرجع الى جشع الأطباء واهمالهم ... لم يحدث أى رد فعل من الأطباء أو النقابة على هذه الاهانات . والحقيقة أن مستشفى القصر العينى كان يعمل تحت ظروف قاسية من الحرمان . كان هناك نقص شديد فى المعدات والتجهيزات والدواء والغذاء ، فقد كانت كلفة المريض المسموحة في اليوم هى « تسعة قروش» !! .

وفى ١٩٦٦/٧/٥ اقامت كلية طب جامعة القاهرة حفلها السنوى لتوديع الأساتذة المحالين الى المعاش والترحيب بالمدرسين الجدد ، حضرها وزير الصحة وعميد كلية الطب ومسؤولون سياسيون من أطباء القصر العينى لعلاقتهم بالاتحاد الاشتراكى ! وتوالت الخطب التى تمجد رئيس الجمهورية ، ولم يتطرق أحد الى تمجيد جيل الأساتذة الرواد أو الدفاع عن القصر العينى ! .

وهنا اعترض الأستاذ الدكتور عثمان وهبى بكلية طب القاهرة بصوت مرتفع على أسلوب الخطباء ، وعندما همّ بالكلام ، قام النقيب رشوان فهمى واستأذنه وأخذ مكانه .

أشار رشوان فهمى الى النقص الشديد فى الإمكانات فى جميع النواحى ، وذكر بفخر أمجاد القصر العينى فى الماضى والحاضر ، مبيناً أنه المدرسة التى خدمت مهنة الطب فى الشرق الأوسط كله .

وأنه ما من قوة يمكنها أن تنكر أو تتنكر لفضل القصر العينى - وقال « أعطوا القصر العينى الإمكانات المتاحة لقناة السويس وسترون ما يمكن أن ينجزه» .

رشوان فهمى يدافع عن القصر العينى ، فقد تخرج فيه ، كما أن والده الدكتور فهمى مصطفى كان مديراً للقصر العينى ...

وتحمس الحاضرون ولكنهم فجأة توقفوا عن التصفيق ، فلم يستحسن الأستاذ الدكتور عثمان وهبى هذا التوقف ، وحثهم على التصفيق «لقد رد رشوان فهمى اعتباركم ومكانتكم وكرامتكم» وسرعان ما وشى بهما أحد المنافقين وكوفئ على ذلك بسخاء ... كيف يجرأن على ذلك ، فرضت الحراسة على رشوان فهمى وعثمان وهبى فى يوليو ١٩٦٦ ثم فصلا من الجامعة بقرار جمهورى ...

وكان ثمن العفو أن يعتذر رشوان فهمى شخصياً عما قاله ! ، فلم يقبل أن يعتذر .... لقد ردّ رشوان فهمى وعثمان وهبى وحدهما كرامة الأطباء ، ودفعا وحدهما ثمن ذلك بكل شهامة وكل شجاعة .

كما فُصِل رشوان فهمى أيضاً من الاتحاد الاشتراكى ومستشفى التأمين الصحى ، كل هذا حدث لرشوان فهمى أول من أيّد ثورة يوليو.

أما نقابة الأطباء فقد اجتمع مجلسها « العام الموقر» ! فى ٦٦/٨/٢٣ ، وفصل رشوان فهمى من عضوية مجلس النقابة ومن منصب نقيب الأطباء ، وكذلك اجتمعت مجالس النقابات الفرعية وفصلته أيضاً !! ...

وجاء فى قرار الفصل « استنكار مواقف الدكتور رشوان فهمى الشخصى دون أن يرجع فيها إلى مجلس النقابة » – استنكار دفاعه عن القصر العينى ، الذى علّمهم وخرّجهم . ما هذا الذى فعلتموه يا مجلس أعرق نقابه فى مصر ويا طليعة المثقفين سامحكم الله وعافاكم .

حتى خط التلفون قطع عن منزله . عن منزل طبيب !

ويجب أن أسجل للتاريخ موقفاً مشرفاً للأستاذ الدكتور محمد الغراب بطب الاسكندرية ورئيس نقابة أطباء الاسكندرية فى ذلك

الوقت، والدكتور عباس ذكرى رئيس نقابة أطباء بنى سويف ، فقد رفضا ، كما رفض أعضاء كلتا النقابتين الموافقة على فصل رشوان فهمى .

لقد ردّ محمد الغراب وعباس ذكرى للأطباء كرامتهم التى أهدرها مجلس النقابة العامة .

لقد كانا شعلتين مضيئتين وسط الظلام الدامس .

لم تكتف الحكومة بما فعلته، فلم تصرف لرشوان فهمى معاشه لسنوات فأصبح بلا مورد .... فلم تكن له عيادة خاصة .

ذهب مندوب الحراسة الى مسكنه وألقى نظرة على محتويات الشقة ثم سأله :

– هل هذا هو كل شئ ؟

– بل أن بعضه لم أسدد ثمنه .

– هل تملك خيول .

– انا لا أملك خيول كما لا أملك سيارة – أما عن حسابى فى البنك ...

– أنا ذهبت الى البنك قبل حضورى اليك ، فلم أجد لك رصيداً ....

قابلت دكتور رشوان بعد هذه الحوادث ، وكان بشوشاً ضاحكاً كعادته فقال لى : تصور عملوا علىّ حراسة فوجدوا أن رصيدى مدين للبنك بمبلغ ٢٨ جم هل سيدفعوهم ؟

كان رشوان فهمى يعيش وحده ، وكان يجد كل صباح مظروفاً يدخل عليه من تحت باب الشقة التى يسكنها به مبلغ من المال ، لا يعرف مصدره ؟

كما قام مدرس بقسم العيون بكلية الطب بالاجتماع ببعض أعضاء هيئة التدريس بالكلية فأنشأوا عيادة جيدة للدكتور رشوان بجوار تمثال الجندى المجهول بالاسكندرية ولم يكن له عيادة قبل ذلك

– ولكن لا بأس أن يدخل فى مجال العمل الحر .

وفى ظروف خاصة ، بدون علم دكتور رشوان ، قدم أعضاء هيئة التدريس بكلية طب الاسكندرية التماساً لرئيس الجمهورية لكى يعاد تعيين رشوان فهمى بكلية الطب ، فَرُفِضَ الالتماس ، ولكن حَدَّد له معاشاً استثنائياً كبيراً ، وكان معاشه الرسمى ضئيلاً ، لأنه كان قد استبدل جزءاً منه ، ولما بلّغ المسئول الدكتور رشوان بذلك رفض رفضاً قاطعاً « كرامته وعزة نفسه تأبى عليه ذلك » – قال للرسول هذه هى إجابتى « يستطيع الحاكم أن يحرمنى مما أستحق ، ولكنه لا يملك أن يجبرنى على أن آخذ ما لا أستحق» وكيف تتصرف الدولة فى أموال الشعب بهذا الأسلوب ، هذا ليس من حقها » .

هو هو رشوان فهمى الذى لم يقبل أن يهدر المال العام قبل الثورة ، لم يقبل أن يهدر بعد الثورة ، حتى لو كان ذلك المال لصالحه .

هو هو رشوان فهمى الذى رفض قراراً بترقيته هو والدكتورة عايدة اللقانى الى درجة أستاذ مساعد سنة ١٩٥٢ بعد الثورة – وكتب الى مدير الجامعة يقول :

ان ترتيب الدكتورة عايدة (١٦) وترتيبى أنا (١٧) فى أقدمية المدرسين بالجامعة،فكيف تتخطون ١٥ مدرس أقدم منا وربما يكونون أيضاً أكفأ منا . أخشى أن يقال ان علاقتنا برجال الثورة هى المبرر لذلك . فأوقفت الترقية .

بعد ثورة التصحيح رفع قضية ضد الجامعة لفصله تعسفياً ، فصدر الحكم بإلغاء القرار الجمهورى الصادر بفصل الدكتور رشوان فهمى من الجامعة ، وبالزام الجامعة بأن تدفع تعويضاً عن الأضرار التى لحقت به – ان قضاء مصر العريق ، كان ولا يزال شامخاً كما عهدناه فهو حصن مصر الحصين ، وقد حكم فى هذه القضية المستشار عادل البندارى فى محكمة القضاء الادارى بالاسكندرية .

وفى يونيه سنة ١٩٧١ صدر قرار بتعيينه أستاذاً غير متفرغ بقسم العيون بكلية طب الاسكندرية لأنه كان قد بلغ سن الاحالة الى المعاش فقد مرّت سنوات .....

وفى ٢٤ مارس سنة ١٩٧٢ أقيم له حفل استقبال فى نادى أطباء كلية الطب بمناسبة عودته أستاذاً بالجامعة وألقى خطبة جاء فيها ....

زملائى - أبنائى

اهتزت مشاعرى أول مرة خطت فيه قدمى مدخل الكلية بعد حوالى ست سنوات واليوم وأنا ألتقى بأسرتى أساتذة وأعضاء هيئة التدريس وأطباء وطلبة الكلية ازداد اهتزاز أحاسيسى بين شعور بالزهو والفخر دون الغرور والرهبة دون الخوف . الفخر لأن قرار جامعة الاسكندرية بعودة أستاذ رأت من حقها أن يعود قد ردت للأستاذية اعتبارها وللجامعة قدسيتها وللدولة احترامها ، وشعور بالرهبة والقلق دون الخوف الرهبة من المسئولية الضخمة التى تتحملونها ، ويسرنى بل يشرفنى أن أشارككم فى تحملها بعد أن قبلتمونى عضواً مرة أخرى فى أسرة الجامعة . رهبة التدريس سوف أتعوّد عليها ، ورهبة شديدة أرجو أن أقدر على مشاركتكم فيها ، فى القيام بواجبنا نحو شعب مصر ، خاصة ومصر تمر فى أقسى محنة فى تاريخها نتيجة أخطاء فادحة وقاتلة ارتكبتها قيادتنا السياسية والعسكرية مرتكزة على ثقة عمياء تسببت فى غفلة الشعب عن مراقبة قيادته وتحكمت فى أمورنا عقول قصار وألسنة طوال .

فتعرض جيشنا لمذبحة ٥ يونية سنة ١٩٦٧ دون أن يحارب «والخطبة مكتوبة بخطه» .

وفى سنوات حياته الأخيرة انتدبته كلية طب طنطا أيضاً للتدريس بها وكان سعيداً جداً بعمله الجديد ، فلا حياة لأستاذ الجامعة خارج الجامعة ، وكنت أسعد بلقائه فى القطار والتحدث معه ساردين ذكريات الماضى .

ومات رشوان فهمى وحيداً فلم يكن يعيش معه أحد ، ولكنه يستمر فى عطائه حتى بعد موته ، لم يكن عنده ثروة لكى يتركها للكلية فتبرع بجسمه لقسم التشريح بعد وفاته ، ولكن الكلية اعتذرت عن تنفيذ وصيته .

أقمنا له حفلة تأبين فى نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة الاسكندرية ، وكان رئيس النادى الأستاذ الدكتور محمد فخر الدين الصاوى الذى أطلق اسم رشوان فهمى على قاعة الاجتماعات فى النادى، وتوالى الخطباء يذكرون مناقب رشوان فهمى وشجاعته قبل الثورة وبعدها ، أتذكر منهم الأستاذ الدكتور لطفى دويدار مدير الجامعة والدكتور عبد الشكور الشهابى بالبحرية المصرية ، وكان فى قمة التأثر فهو صديق عمره ، وقد طالب باقامة تمثال لرشوان فهمى فى مدخل الجامعة فهو أحق بهذا التكريم من أى انسان .

ودعيت لإلقاء كلمة ، فقلت ان رشوان فهمى ظاهرة لا تتكرر بسهولة ، شجاعة ، إقدام ، كرامة، قوة فى الحق ، لا يخفض رأسه أبداً، فى وقت أذّل الحرص فيه أعناق الرجال .

شخصية فذة ، يُذّكرنا بالصحابى أبو ذر الغفارى الذى قال عنه رسول الله ﷺ « عاش وحده ، وجاهد وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده » . معتنقاً لقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

أنا ان عشت لست أعدم قوتا   وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الرجال ونفسى   نفس حُرٍّ ترى المذلة كفرا

وطلبت من المسئولين تخليد ذكراه ، فهى تخليد للقيم والمبادئ السامية.

وقد كتبت هذه الأبيات تخليداً لذكرى رشوان فهمى ، واعترافاً بفضله .

العلم والأخلاق يجتمعان   والنبل والاقدام يلتقيان
علمت أجيالاً وصنت مبادئا   ورفعت هامتنا بكل مكان

ودعوت للعدل الشريف مناضلا	بالحق فى سـر وفى اعـلان
ولقد ذكرتك والجموع تحوطنا	مستمتعين بحكمه وبيان
فأخذتَ منا العهد عما قلتَه	وأخذتُ منك مواقف الشجعان
ورفعت رأسك عاليا متعاليا	بالزهد مبتعداً عن الأقران
ورفضت أهل الذل فهو خطيئة	ذل الحياة وكفرها صنوان
هم فَضّلوا العيش الهنيئ وما دروا	ان الضمير محاكم الأزمان
ليس الولاء لقائد أو حاكم	إن الولاء لنصرة الأوطان
يا مصر حسبك ما ظلمت وإنما	ما رمت إلا أن أُعيد كيانى
يا مصر إن العلم سلطان الورى	هل يستوى العلماء بالسلطان؟
تعطى العُلوّ لظالم أو جاهل	وتجانبين أئمة العرفان!
يا مصر إبنك فى الخلود مكانه	لا تتركيه الى الهباء الفانى
لو يحسن الشعراء صوغ قصيدهم	لن ينظموا إلا على رشوان
ما مات من أحيا أصالة أمة	وأعزها بكرامة الانسان

رحم الله رشوان فهمى ، فإن ذكراه حية لا تموت ...

– بعد نشر هذه المقالة قام رئيس وأعضاء هيئة التدريس بقسم العيون بطب الاسكندرية بإطلاق اسم رشوان فهمى على قاعة المحاضرات بالعيادة الخارجية لقسم العيون ووضع صورة كبيرة له ولوحة رخامية باسمه وتاريخ حياته وانجازاته .

وهذا ليس بكافٍ ، وأرى أن يقام له تمثال بمدخل الكلية .

وليس بعامر بنيان قوم
إذا أخلاقهم كانت خرابا

أحمد شوقى

لماذا تذكرت هذا البيت من شعر شوقى عندما سقط منزل مصر الجديدة ، وعادت بى الذاكرة الى سنوات قليلة مضت - فى مستشفى الاسكندرية الجامعى ، عربات اسعاف تتوافد ، الأطباء والممرضات فى حركة مستمرة - حالة طوارئ فى المستشفى ، لقد انهار منزل ... هذا شئ جديد علينا - فى الماضى كانت حال الطوارئ تُعلن لتصادم قطارين أو أتوبيسين أو حوادث المظاهرات - أما انهيار المنازل فهذا شئ جديد.

غش فى الحديد ، غش فى الأسمنت ، زيادة عشوائية فى تعلية البناء ، رشوة ، فساد ، أخلاق وذمم خربة - لقد سقطت عند بعض الناس القيم النبيلة ، والأخلاق والمبادئ الفاضلة التى توارثها المصريون عبر الاف السنين ، فسقط البنيان . ومهما كانت القوانين رادعة فإن هيبة القانون هى الأهم .

فإذا أعطى اجازة سقطت هيبته وسقط كل شئ.

وقد صدر أخيراً تقرير الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء أوضح أن هناك أكثر من ربع مليون شقة آيلة للسقوط فى القاهرة .

ربع مليون شقة يسكنها أكثر من مليون انسان .. كان صاحب المنزل فى الماضى رجلاً محترماً يشرف بنفسه على البناء ويضع فيه من المواد ما يرضى الله ، أما الصيانة فهى شغله الشاغل وكان غالباً ما يسكن فى منزله ، أما بقية السكان فهم جيران له وهو جار لهم وكانوا يعطونه حقه ويعطيهم حقهم ، وكان بينهم مودة ومحبة فهم كأسرة واحدة .

« والنبى وصى على سابع جار» .

حدثنى أحد الزملاء « كنا نسكن فى عمارة فى دمياط ، وكنت أظن أن صاحب المنزل قريب لنا ولم أدرك أنه مجرد جار إلا عندما حصلت على الثانوية العامة » مودة ومحبة .

أما الآن عداء مستمر ، وبُغض بين صاحب المنزل والسكان .

يَنْدُر ألا توجد مشكلة أو قضية ، وبعد « يافطة للايجار» أصبحت قضايا الاسكان تحتل الجزء الأكبر من القضايا فى المحاكم . قانون واحد مزّق علاقة الناس بعضهم ببعض ، وستظل كذلك مادام القانون الجائر قائماً – يا أستاذ هَدِى أخلاقك أنتم جيران .

– « يا دكتور يدفعون لى ٢ جنيه فى الشهر فى شقة ٤ حجرات على الكورنيش ، ولا يدفعون شيئاً فى الصيانة إلا بصعوبة بالغة ، والعمارة حالتها لا تسر ، عَرَضت عليه ، أن يقوموا هم بالصيانة وأتنازل لهم عن الايجار فرفضوا « هو بيتنا » . وعندما يحل الصيف يؤجرون شققهم مفروشة للمصيفين ويتقاضون ألوف الجنيهات ولا يدفعون لى إلا مبلغاً تافهاً « القانون كده » .

وإذا توفى أحد السكان وكان يسكن وحده – ظهر له أقارب من جميع الدرجات يدّعون أنهم كانوا يسكنون معه ويشترون مجموعة من شهود الزور يقسمون يمين الله بالمحكمة كذباً وبهتاناً ويستولون على الشقة ، لا دين ولا أخلاق .

كان ايجار الشقة ٥ جنيهات ، فأُنقصت الى ثلاثة جنيهات وكان الجنيه المصرى محترماً قوياً .

كنا نشترى بالجنيه ٥٠٠ بيضة « الخمس بقرش واحد» وبالخمسة جنيهات نشترى ٢٥٠٠ بيضة أما الايجار الآن ٣ جنيه نشترى بهم ١٥ بيضة أى ١/ ١٧٠ من القيمة الحقيقية « القانون كده » .

أما وسائل الاعلام وخصوصاً التلفزيون فحدث ولا حرج – فصاحب المنزل رجل جاهل رجعى يستغل السكان ، من يستغل من ! « صاحب المنزل المقهور أم السكان » .

وشوقى العظيم لا يرى شيئاً أهم من الأخلاق فى بناء المجتمع حتى الحشرة التى لا تفهم تبنى مجتمعاً ناجحاً بقوة الأخلاق ، عندما يصف مملكة النحل يقول :

مخلوقة ضعيفة من خلق مصوره
يا ما أقل ملكها وما أجل أثره
قف سائل النحل به بأى عقل دبَّره
يجيبك بالأخلاق وهى كالعقول جوهره
تغنى قوى الأخلاق ما تغنى القوى المفكره
ويرفع الله بها ما شاء حتى الحشرة

ومنزل مصر الجديدة لم يكن أول ولا آخر منزل يسقط ، والزلزال برئ من كل هذا ، هكذا حكمت المحكمة .

أخبرنى أحد مهندسى المبانى أن المنازل التى تسقط ، إما منازل قديمة بنيت فى القرن الماضى ولم تتم فيها اى صيانة منذ أكثر من ٤٠ سنة ، فصاحب المنزل قضى عليه نهائياً بقوانين الايجارات المتعسفة والسكان لا يعملون أى صيانة « هو بيتنا» .

ذكرنى هذا الوضع بقصة السيدة التى كانت فى رحلة بحرية تسرع فى ايقاظ زوجها « قوم بسرعة المركب بتغرق» فيرد عليها ببرود « واحنا مالنا هى مركبتنا» .

ويستطرد المهندس ، وأما المجموعة الأخرى من المنازل التى تسقط فهى بعض المنازل التى بنيت بعد سنة ١٩٦١ بمواد ومواصفات غير سليمة عندما انتشر الفساد وانتشرت الرشوة .

وقام بالبناء لصوص جهلة لا أُصول لهم ولا أخلاق لهم .

ونتج عن ارتباك قوانين الإسكان أوضاع لا يوجد لها نظير فى العالم فالأرض الفضاء ثمنها أضعاف ثمن العقار الكبير الفخم المبنى

على نفس مساحة الأرض الفضاء التى لم يبنَ عليها شئ ، رجل ناجح بَنّاء ، تنخفض قيمة أرضه وعقاره الى أقل من ١/ ٢٠ من قيمة الأرض الفضاء الذى لم يُبْنَ عليها حجر واحد ؛ وإذ قلت لصاحب المنزل ربنا يخرب بيتك اعتبر ذلك دعاء له ؛ .

توقف البناء سنوات وسنوات فحدثت أزمة فى الاسكان لم تحدث فى تاريخ مصر من قبل ، فتراكم الناس فى الشقق وسكن الشقة الواحدة اكثر من أسرة ، فتمزقت تقاليد المجتمع ، وسكن الأحياء المقابر – هل يوجد نظير ذلك فى العالم كله .

حتى الثلاثينات من هذا القرن كان يقوم ببناء العمارة (معلّم) غالباً لا يقرأ ولا يكتب وورث المهنة عن أجداده البنائين العظام – ولقد رأيت بنفسى أحد هؤلاء ؛ المعلمين؛ يخطط الأرض ويحفر للأساس ويقيم الجدران – لم يكن هناك مهندس مبانى ، ولكن كانت هناك قيم وأخلاق ولاتزال هذه المبانى قائمة شامخة تتحدى الزمن والزلزال ، هل هناك دليل أكثر قوة .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هكذا قال شوقى شاعر الأخلاق .

وكنا ولا زلنا نردد هذا البيت ، الذى لم أستوعب معناه بعمق ، إلا عندما سقطت عمارة مصر الجديدة .

سن التقاعد



فى السبعينات جلست على إحدى المقاهى فى شارع الكورنيش فى الاسكندرية لأستريح من عناء العمل ، فوجدت بجانبى مجموعة من الموظفين وفهمت من أحاديثهم أنهم من أرباب المعاشات .

ودار الحديث بينهم فى كل ما هو تافه من الأمور ، ثم ابتدأوا فى لعب الطاولة وكل منهم يتوعد الآخر ويؤكد له أنه المنتصر وكأنه يقود معركة حربية ...

ما هذا الضياع – هل سأضطر يوماً لأن أكون « زبوناً » مستديماً لهذا المقهى أو لغيره وأتصرف مثل هذا التصرف .

لماذا لا يخطط الانسان لمستقبله عندما يبلغ سن التقاعد – سيكون الفراغ قاتلاً ، لماذا لا يشغل وقته بعمل ما ، أو بقراءة ، أو بتجارة مثلاً طالما أن صحته تسمح بذلك بدلاً من هذا الضياع .

ومرت الأيام ولا بد لها من أن تمر ، وجاء سن التقاعد ولكن الدولة كرمتنا بمد خدمتنا الى أخر العمر ، فسوف نعمل فى الجامعة، ونحاضر ونعلم ، ونجرى العمليات لتعليم أجيال وأجيال . انها عودة الروح الى جيلنا .

وهذا الجيل هو ثروة لوطننا ولأمتنا العربية - عندما عملت فى السعودية لبعض الوقت ، كانت المستشفيات تفضل التعاقد مع أطباء وأساتذة « من الجيل القديم» لقد عرفوا قدره ...

كما أن رجال القضاء هم مفخرة لمصر ، وكبار رجال القضاء ثروة قومية ، لا يصح التفريط فيها ، ولا بد من مد خدمة قضاة مصر العظام .

-أقامت لنا الكلية حفلة تكريم بمناسبة بلوغ سن التفاعد ، وليس لانتهاء الخدمة ، وكان معى من المكرمين الزميلان الأستاذ الدكتور أمين رضا رئيس قسم جراحة العظام والأستاذ الدكتور عبد الحميد الشواربى رئيس قسم جراحة المخ والأعصاب ، وحضر الحفلة مدير الجامعة الأستاذ الدكتور فريد مصطفى وأهدانا الميدالية الذهبية للجامعة .

تكلمت فى هذا الحفل شاكراً للزملاء حسن تقديرهم ووفائهم ، بعد أن تركنا صفتنا الادارية ، ولم يصبح لنا أمراً ولا نهياً ، ولكن الأداء العلمى والعملى سيستمر بإذن الله .

كما شكرت الدولة التى قدّرتنا وأعطتنا هذا العطاء - وقلت بأننا لم نضطر الى طلب ذلك - فالطلب صعب على نفس الانسان ، والدولة إما أعطته وإما منعته ، وتذكرت ما حدث لشاعر مصر الرقيق حفنى ناصف عندما أحيل الى المعاش فكتب الى رئيس الوزراء يطلب منه مد خدمته ... قال :

صاحب الدولة يا شيخ الوزارة حاجتى إن شئت تقضى باشارة
نالها قبلى ألوف لم أكن دونهم علماً ولا أدنى جدارة
وإذا لم يشكو مثلى علة أمن الحكمة أن يلزم داره

وحمدت الله على أننى لم أقف مثل هذا الموقف .

ثم سردت تاريخ الكلية العلمى والاجتماعى والسياسى والرياضى التى كانت فيه الكلية رائدة ، وقدمت الشكر والتقدير للأساتذة والأطباء الذين علمونى منذ أن كنت طبيب امتياز ، وقلت « وانى كمصرى أهيم حباً بوطنى وأقدس ترابه أدين بالولاء والوفاء لوطنى الصغير [قسم الجراحة] ففيه تعلمنا ، وفيه علّمنا ، وقد أعطى لنا المكان والمكانة داخل وخارج الوطن ، وأننى مهما قلت ، فلا يمكننى أن أوفيه حقه ... وقلت ان هذا الجيل العظيم من أساتذتنا هم الذين أقاموا هذا الصرح الشامخ التى لم تنجح الأيام العصيبة ، ولا الليالى المظلمة ، فى أن تهز هذا البنيان .

وقلت ان العالم يسير بسرعة فائقة ، والعلم يتقدم بخطى جبارة، ولا مكان تحت الشمس لمن يقف فى مكانه وتمنيت للجيل الذى سيخلفنا النجاح واستمرار اعلاء البناء الذى بدأه أساتذتنا ، وطوره جيلنا وحافظ عليه .

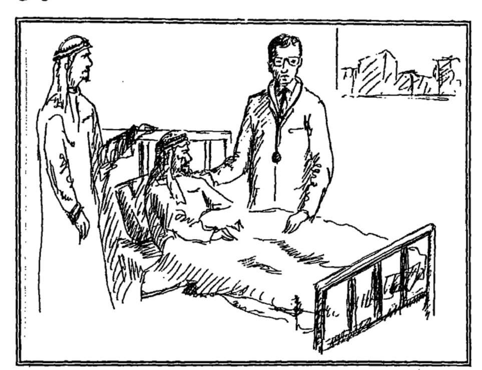
وتوالت السنين وظل نشاطى مستمراً ، بل ازداد على ما كان عليه - الاشتراك فى الامتحانات والتدريس واجراء العمليات فى كلية طب الاسكندرية وفى جامعات أخرى عندما طلبوا منى ذلك ....

وسأظل إن شاء الله سائراً على هذا الطريق طالما كنت قادراً على هذا الأداء ، فلا حياة لأستاذ الجامعة خارج الجامعة ....

قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه

كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

شوقى



في سنة ١٩٨٠ كنت أعمل في مكة المكرمة لمدة قصيرة ،

وبتعاملي مع المرضى رأيت أخلاق العرب الأصيلة ، الشهامة والكرم والوفاء .

حضر الى المستشفى مريض مسنّ ومعه حفيده الذى كان يرعاه بكل عطف وكل حنان .

وكان المريض يشكو من احتباس بولى ، وكان يبلغ من العمر ١١٠ عاماً ، بلغ من الكبر عتياً وفقد بريق عينيه ، وكأن ليس بهما حياة -ولكن عقله كان حاضراً ، وذهنه صافياً متوقداً -

عملت له العلاج اللازم فاستراح من آلامه .

سألنى :

– هل أنت مصرى ؟

– نعم .

– إن المصريين أغنياء .

تدّخل حفيده ، وهو فى العقد الرابع من عمره ، معارضاً هذه العبارة وكأنه يقول أن جده لا يعى ما يقول – فالحفيد لم يكن يدرى أن الشيخ كان يعيش فى الأيام الماضية التى لم يدركها الحفيد ، والتى كان المصريون فيها أغنياء .

– ويستطرد الشيخ ، أنا أحب مصر وقد حزنت جداً عندما دخلها الانجليز وبكيت .

– متى كان ذلك ؟ هل تقصد عدوان سنة ١٩٥٦ ؟

– لا ... عندما انتصروا على عرابى !! كنت أيامها صغيراً ، عمرى حوالى اثنى عشر عاماً –وأنا أعرف مصطفى كامل وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، فهو لا يعرف أحد أصغر من هؤلاء ! .

وأعرف الملك عبد العزيز – رجل شجاع – قبله لم يكن هنا أمن ولا أمان – إلا داخل الكعبة فقط .

ان هذا الشيخ المسن يعيش فى الماضى ، ويحمل بين جوانحه إيمان عمق بالوحدة العربية ، وبأصالة وشهامة أبناء الصحراء وهو يحب مصر ويعترف بقدرها . وكان يتكلم بحماس وايمان لم أره فى الجيل الجديد من أمتنا العربية .

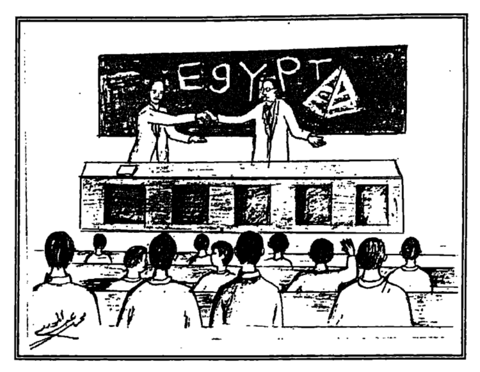
انه من الجيل الذى يشعر ويحس بآلام أمته – لقد عاصر احتلال مصر وقهرها ، وعاصر تمزق الوطن العربى الى دويلات لا حول لها ولا قوة – تنهب وتهان ويعتدى على أبنائها ويعتدى على كرامتها ، لقد

أَنّ جرَيح العراق وجريح من غير العراق ، ولم يلمس الشرق جنبه لا فى عمان ولا فى غير عمان .

لقد بكيت أيها الشيخ الجليل عندما دخل الانجليز مصر ونحن لانملك حتى البكاء على اغتصاب فلسطين واغتصاب الأعراض فى البوسنة .

أنظر الى هذا الضياع ، وأرى المستقبل مشرقاً بإذن الله لقد انطلق صاروخ الوحدة الاسلامية ، وسيصل حالاً لا محالة الى هدفه فى الوقت المحدد لإصلاح ما أفسده الدهر وما أفسده الانجليز وغير الانجليز .

أستاذ زائر فى نورث كارولينا



عملت أستاذاً زائراً فى جامعة شابل هل فى نورث كارولينا لمدة قصيرة مبعوثاً من جامعة الاسكندرية...

القسم مجهز تجهيزاً جيداً ، وأعضاء هيئة التدريس على درجة عالية من العلم والكفاءة ولكنى فوجئت بأن عدد الأسرّة فى القسم ، أحد عشر سريراً فقط .

والأعجب من ذلك أن عدد العمليات التى تجرى شهرياً ، أكثر عدداً مما يجرى فى أقسام بها أكثر من ستين سريراً فى مصر .

فالمريض هنا يدخل يوم العملية لأن جميع الأبحاث أجريت له قبل ذلك ولا يمكث فى المستشفى عادة إلا مدة قصيرة جداً ، يوماً أو يومين، ينتقل بعدها الى منزله إذا كان قريباً ، أو الى فنادق صغيرة حول المستشفى مؤهلة كذلك .

كم من الوقت والجهد يضيع فى مستشفياتنا .

أقمت فى فندق خارج المدينة وكانت الطبيعة جميلة فالفندق محاط بحدائق وغابات لا نهاية لها - وكان رئيس القسم دكتور فلويد يكرر دعوتى مساء الى منزله لأجلس معه ومع أسرته فهو لا يقبل أن أظل وحيداً فى الفندق - ان كرم أهالى نورث كارولينا يذكرنى بكرم أبناء الشرقية ، التى أمضيت بها فترة من أجمل سنوات حياتى .

- بناء على طلب دكتور فلويد أعطيت درساً للطلبة وكان عددهم ثلاثة بالقسم وثلاثة من خارج القسم .

وألقيت محاضرة لأعضاء هيئة التدريس والطلبة عن ضيق مجرى البول الخلفى نتيجة لكسر الحوض - وقد تعرضت لاستفسارات وأسئلة ومناقشات كثيرة من المستمعين . وقد علّق دكتور فلويد قائلاً: « انى أنصح لمن يريد أن يتعلم جراحة مجرى البول أن يذهب الى الاسكندرية » ...

وبناء على طلب رئيس قسم الجراحة ألقيت محاضرة تعطى كل شهر ويحضرها كل أعضاء هيئة التدريس . وقد عرضت عليه بعض المواضيع فاختار محاضرة « تاريخ المسالك البولية فى مصر » وقد لاقت المحاضرة استحساناً كبيراً ، وصعد رئيس القسم المنصة وهنأنى، وعلق على المحاضرة قائلاً « ان الحضارة الطبية فى مصر القديمة لا تقل عن معجزة بناء الأهرام » ، وطلب منى أن أزوره فى مكتبه ، وطلب منى مجموعة من المقالات التى كنت قد نشرتها من قبل .

وذات يوم أثناء مرورنا على المرضى بالقسم اعترضْتُ على رأى باجراء عملية استئصال تضخم كبير جداً بالبروستاتا خلال المثانة ، واقترحتِ أن تتم الجراحة خلال خلف عظمة العانة لتجنب النزيف .

- فقال رئيس القسم : حسناً لتعمل أنت هذه العملية .

وفى صباح اليوم التالى أجريت العملية بسهولة .وقد ساعدنى اثنان من النواب.وقد اقتنعوا تماماً بالطريقة .

وفى المساء ، حضر الىّ بالفندق اثنان من الأطباء المصريين الذين يعملون بالمستشفى أحدهم فى قسم جراحة الأوعية الدموية والثانى فى قسم أمراض النساء « دكتور يسرى خميس » وكان مبعوثاً من كلية طب الاسكندرية .

– لقد سمعنا عن العملية التى أجريتها ، وهذا لم يحدث من قبل ، فلم يصرحوا لأحد من الزوار قبل ذلك أن يقوم بجراحة هنا . والجميع هنا مقدرون لما قمت به من محاضرات ومناقشات ونحن نفخر بذلك ....

كانت فترة اقامتى القصيرة فى هذه الجامعة من أجمل الأيام – وقد استفدت عملياً وعلمياً مما رأيته وسمعته .

استمرت علاقتى برئيس القسم الدكتور فلويد مدة طويلة ، وقد زرته بعد عدة سنوات فى شابل هل ...

وقابلته أكثر من مرة فى المؤتمرات التى تعقد فى الولايات المتحدة .

دكتور چون دى تار
John De Tar M.D.



أثناء وجودى بالولايات المتحدة سنة ١٩٨٣، نبهنى الزميل الدكتور عادل محمد، الذى يعمل فى نورث كارولينا، الى اعلان فى مجلة المسالك البولية الأمريكية موقع من الدكتور چون دى تار اخصائى المسالك البولية، يعلن فيه أنه مستعد لاعطاء مناظير ضوئية للمسالك البولية للفحص ولاجراء العمليات لمن يطلبها من الأطباء بدون مقابل: اتصلنا به فى مدينة رينو بولاية نيڤادا حيث يقيم، فرحب بزيارتى له، ووعد باعطائى ما أطلبه، سافرت الى رينو بالطائرة ووجدت دكتور چون فى انتظارى بالمطار. رحب بى وأخذنى الى منزله، والمنزل عبارة عن ڤيلا صغيرة وحولها حديقة وأصَّر أن أتناول طعام الافطار لأن الساعة كانت لم تبلغ الثامنة صباحاً - كما رحبت به وزوجته وهى سيدة فاضلة.

« هذه هى زوجتى وأبناؤنا عددهم ١١ ، فنحن لا نحدد النسل لأننا كاثوليك ، وهذا فى عقيدتنا محرم – ثم قال لى ضاحكاً – وبهذه الطريقة سوف نحكم أمريكا يوماً ما ...» .

دعانى أن أنزل معه الى حجرة أسفل المنزل ، وعندما فتح بابها وجدت عشرات المناظير الضوئية مكدس على الأرفف .

– هذه الآلات ترسل لى من كل أنحاء أمريكا من زملاء تقاعدوا عن العمل ، وأنا أقدمها بلا مقابل لمن يحتاج اليها فى اى مكان من العالم .

فحصت الآلات فوجدت ان فيها آلات جيدة ، وآلات لم تستعمل من قبل وبعضها كان غالى الثمن .

– « يمكنك ان تأخذ أى كمية من هذه الآلات على قدر ما يمكنك أن تحمله ، فسيرسل لى غيرها ، واحضر لى شنطة كبيرة كدست بها عدداً كبيراً من المناظير واخذتها معى ثم طاف بسيارته فى انحاء المدينة، والمدينة تقع على بحيرة كبيرة والمناظر الطبيعية بها جميلة – وفى كل ركن من أركان هذه المدينة مكان للعب القمار فهو مصرح به فى هذه الولاية.

– لايزال هناك بضعة ساعات تقضيها معنا حتى يحين ميعاد طائرتك . هناك شيئان فى مدينتنا يستحقان المشاهدة – أولهما فندق كبير على درجة عالية من الفخامة والأبهة . وثانيهما معرض كبير للسيارات القديمة – عليك أن تختار أحدهما لضيق الوقت فاخترت معرض السيارات .

رأيت فى هذا المعرض ما لا أتوقع رؤيته – سيارات من القرن الماضى وأوائل القرن الحالى من جميع الماركات ، وسيارات كبيرة الحجم جداً كانت مصنوعة خصيصاً لأحد الأفراد ، ولا يوجد نظير لها، فالسيارة موديل خاص بالطلب .

ورأيت سيارة فورد موديل سنة ١٩٢٧ ، وعرفتها فقد كان للأسرة سيارة مماثلة وأنا طفل ، وقد اندهش دكتور دى تار عندما عرفت سنة الصنع .

أمضيت حوالى ساعتين فى هذا المعرض وذهبت بعد ذلك الى مستشفى خاص يعمل به دكتور دى تار ، وأخذ رأيى فى حالة كان سيجرى لها جراحة ... ثم أخذنى الى نادى المدينة وأخذنا وجبة غذاء .

حدث كل هذا وأنا مبهور وكأنى فى حلم جميل .

بدون سابق معرفة يقوم هذا الرجل بكل هذا ويقدم كل هذه المساعدات بدون مقابل .

وأخذنا نتحدث فقال لى : إن أجدادى من فرنسا ، وسوف أزورها إذا حضرت يوماً ما الى مصر - ثم جرى الحديث بيننا عن تاريخ فرنسا ومصر..

ان الثورة الفرنسية لم تكن عملاً جيداً - لقد قتل الثوار ١/٦ سكان فرنسا بمحاكمات صورية وشوهوا التاريخ .

- هل تعرف كم عدد المسجونين الذى كانوا فى الباستيل عندما استولى عليه الثوار .

-لا بد انهم كانوا مئات .

- لم يكن فى السجن إلا سبعة أفراد فقط ... ولم يكن هناك إلا مسجون سياسى واحد ، كان قد حاول قتل الملك بقنبلة فلم تنفجر ، حكم عليه بالسجن ولم يعدم ، وستة مساجين محكوم عليهم فى قضايا مدنية سرقة ونصب ... إلخ . ألم أقل لك انهم شوهوا التاريخ ...

ان إضافة كلمة « دى» الى اسم الشخص فى فرنسا تدل على عراقة أصوله - فربما يكون هذا هو السبب فى تحامله على الثورة الفرنسية -ولكن كيف يكون قتل ١/٦ سكان فرنسا عملاً جيداً .

بعد سنوات من هذا الحديث سمعت عن مظاهرات قام بها شبان فى فرنسا فى عيد الثورة وحطموا الزينات التى تقام رافضين الاحتفال بهذه الذكرى الأليمة – لقد اعتنق شباب هذا الجيل أفكار « دى تار» .

بعد ذلك أوصلنى دكتور دى تار الى المطار ، وتمنى لى رحلة سعيدة الى سان فرانسيسكو . وبعد فترة قضيتها فى سان فرانسيسكو لحضور مؤتمر عالمى عدت الى مصر – فأعطيت المناظير الى بعض مراكز التدريب التى أعمل بها والى الزملاء الذين طلبوا منى ذلك .

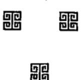
ذهبت الى الولايات المتحدة مرتين بعد ذلك ، وكنت أزور دكتور چون فى كل مرة ، وكان يعطينى ما يمكننى حمله من المناظير والآلات لأعطيها الى الزملاء .

كما كان يرسل لى بمصر مراراً ، مناظير وآلات فى البريد أو مع بعض الزملاء المصريين .

وفى سنة ١٩٨٧ دعوناه هو وزوجته كضيف شرف فى المؤتمر الدولى الذى أقيم فى القاهرة ، فانتهز الفرصة وزار فرنسا وأمضى بها بعض الوقت قبل حضوره الى القاهرة .

وفى القاهرة رحب به الزملاء وسعدنا بزيارته وقد بُهر بما رآه من حضارة مصر القديمة، كما بُهر بالمستوى العلمى للمؤتمر . ولا يزال الاتصال بيننا قائماً ، ولا يزال يرسل لى كل حين بعض المناظير التى أعطيها للزملاء .

ان چون دى تار رجل نبيل ، من الشخصيات النادرة التى لا تُنسى . اننى كلما تذكرته ، أرى أن الخير لايزال موجوداً وسط كل هذا الشر الذى يفيض به العالم .



لو كان الفقر رجلاً لقتلته

الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه

أتذكر هذا القول للإمام على كرّم الله وجهه ، كلما رأيت أباً وأماً لا تقدر أن تدفع ثمن علاج طفلها المريض .

حار الناس منذ فجر التاريخ فى أمر ذلك البلاء ...

حاولت المجتمعات القضاء على الفقر فلم تنجح – هل هى مسئولية الدولة أم هى مسئولية الناس .

الشيوعية : جعلت الدولة مسئولة عن كل شئ ، فلم تنجح فى القضاء على الفقر ولكنها قضت على كرامة الانسان وطموحه ، ونجحت فى توزيع الفقر والقهر على كل الناس ، عدا الفئة الحاكمة الضالة فسقطت وتحطمت وسقطت معها الشيوعية .

والشيوعية ليست بجديدة فى تاريخ الانسان ، فقد بُليت بها الدولة الاسلامية ، فرضها الثوار القرامطة بقوة السلاح وأقاموا دولتهم – فلم يعيشوا طويلاً ، ودمرت دولتهم من الداخل ، تماماً كما حدث بعد ذلك للاتحاد السوفيتى ، الذى غفل عن التاريخ ولم يأخذ عبرة منه . لقد حاربت الشيوعية غرائز الانسان ، حاربت غريزة حب التملك ، ومن يحارب غرائز الانسان فلا بُد من أن يُهزَم .

أما الرأسمالية فلم تنجح أيضاً ، ففى أمريكا وهى قمة فى الثراء رأيت فيها الفقر فى أدنى درجاته – هناك الاف بلا مأوى ويعيشون تحت خطر الفقر المدقع ولا يحصلون على ما يكفى من الطعام . كنت أعمل أستاذاً زائراً فى الولايات المتحدة ، قال لى رئيس القسم بالجامعة سأريك فقراء الأمريكيين – فأخذنى بالسيارة الى مكان مرتفع على أحد الجبال فرأيت مجموعة من البشر تعيش على أدنى مستوى من الفقر .... منازل حقيرة وأطفال فى غاية البؤس .

هل تصدق أنهم يأكلون من طعام الكلاب المعلبة ، على أى حال فإن بها بروتين – انهم لا يصلحون لشئ والحكومة تعينهم بما لا يكفى وتجدهم هكذا ، ويوجد مثلهم كثيرون .

أنا لا يمكننى أن أفهم ذلك ، فأنتم عندكم فائض من الطعام ترسلونه الى دول كثيرة فى العالم – والأراضى الصالحة للزراعة فى هذه الولاية « نورث كارولينا » كثيرة كيف يكون عندكم هؤلاء الجوعى. لا أستطيع أن أفهم هذا اللغز ؟ .

أما الاسلام فهو يرى أن الدولة مسئولة عن رعاية الناس .

كما أن أفراد الشعب مسئولون أيضاً « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

فالزكاة فريضة على كل مسلم ، ولو طبقها كل فرد لتحسن الوضع جداً فالدولة لا يمكنها أن تدخل الأزقة.

ولكن لا يزال هناك فقر وإملاق حتى فى فجر الدولة الاسلامية .

كيف يشعر الانسان المقهور بالانتماء لوطنه .

ولقد أقلق ذلك البلاء الامام على كرَّم الله وجهه « الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غُربة» . وتمنى أن يكون الفقر شيئاً مجسماً ، رجلاً مثلاً ، فلا يتردد فى أن يقتله .

لماذا يوجد الفقر ؟

لابد من ايجاد وسيلة لرفع العناء عن الفقراء ، ولكن لابد من وجود طبقات .

قال تعالى : « نحن قَسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتخذَ بعضُهم بعضاً سُخرِياً » .... «سورة الزخرف» ، فلا بد من وجود طبقات ومستويات للناس حتى يصلح المجتمع ويسير العمل – والرزق الذى يعطيه الله للانسان لا يخضع لمنطقنا الدنيوى – فهناك سعة من الرزق هنا ، وبجانبه ضيق من الرزق هناك ، فالله يعطى الرزق لمن يشاء .

قال تعالى : « ....إنَّ ربَّك يَبسُط الرزق لمن يشاء ويَقْدِرُ ، أنّه كان بعبادِه خبيراً بصيراً » « الاسراء» .

وقال تعالى : «... واللّه فضّل بعضكم على بعض فى الرزق» « سورة النحل » ، وقد احتار الحكيم أبو تمام فى ذلك فقال :

فلو كانت الأقسام تجرى على الحجا هلكن إذا من جَهلِهِنّ البهائم

وكل المخلوقات ترزق :

قال تعالى : « .....وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها» «سورة هود» .

والشاعر الديب كان فقيراً بائساً وكان لا يعمل فاستجار من الفقر وخاطب ربه:

اخلقتنى يا رب أم أناواهم : أنا ما خلقت لأننى لا أرزق .

ولكنه كان مخلوقاً وكان يرزق ، وكثير من الناس كانوا يعطفون عليه ، ولكن لا يزال الفقر موجوداً ... إن الانسان إذا لم يجد المال لعلاج طفله يكون فى أشد حالات البأس والضياع . ولقد قدّرنى الله أن أحل كثيراً من مشاكل هؤلاء الآباء والأمهات قدر استطاعتى وقدر جهدى وكنتَ أشعر بسعادة وراحة نفسية لا حدود لها عندما أقوم بهذا العمل .

ولا بد للطبيب أن يقدر مثل هذه المواقف الانسانية .

ولا زالت مصر بخير فقد رأيت زملاء أفاضل على أعلى مستوى من الانسانية والعطاء فى معاملتهم مع المرضى .

إذامات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له

حديث شريف

عجيب امر بعض الأساتذة ، والجراحين الذين يضنون بخبرتهم على زملائهم – هذه حقيقة يعيش فيها صغار الأطباء فهم فى شوق الى الخبرة التى اكتسبها الكبار .

والأستاذية شرف واى شرف ، فإذا لم يعط الأستاذ كل ما عنده بأمانة وصدق ، فليس من حقه أن يحمل هذا اللقب الرفيع .

وممارسة الطب صناعة وفن كما كان يسميها أطباء العرب القدامى لا يجيدها إلا من مارسها مع من هو أكبر منه .

صحيح ان الدراسة النظرية أساسية ومهمة ، فهى التى ترسم خطة العمل وتنظمه ، ولكن ما قيمتها إذا كان الطبيب لا يجيد أداء هذا العمل .

يقول الرازى « يصعب فى الطب كثيراً الوصول الى الحقيقة وفن الطب كما تجده فى الكتب أقل بكثير من الخبرة العملية التى قد يحصل عليها طبيب ماهر ومفكر » .

والطبيب لا يمكن أن يستوعب الخبرة إلا إذا كان المعلم عنده الرغبة فى أن يُعلِّم ، ويتحلى بالصبر والأمانة .

وكما أن استيعاب الخبرة موهبة ، فإن القدرة على التعليم موهبة، نراها فى بعض الأساتذة دون الآخرين .

ذكّرنى هذا الوضع بالطبيب الانجليزى الذى ابتكر جفت الولادة المعسرة . قال لنا أستاذنا الفاضل حسين طبوزاده رحمه الله « هذا المجرم» « شمبرلن» أخفى ابتكاره وامتد هذا الاخفاء الى الجيل الثالث

من أبنائه ، سلالة مجرمة كانت تريد الكسب المادى بلا مبادئ ولا أخلاق، كم من سيدة فقدت حياتها ، وكم من طفل لم ير الحياة نتيجة لاخفاء هذا الجفت» وإذا كان بعض الأطباء يَضنّون بخبرتهم ، فهناك أمثلة مشرفة لبعض الزملاء الذين يعطون بلا حدود .

قالى لى زميل معلقاً - « ولكن بعض من علّمناهُم لم يراعوا التقاليد الطبية» .

- نعم ، ولكن هناك أمثلة مشرفة لمن علّمناهم وهم يكنون لنا كل احترام وتقدير ونحن نكبر بهم ، ونفخر بأننا أعطيناهم العلم ، هل تذكر « فلان وفلان » .. لقد بلغا أعلى المراتب ، ورأسا أقسام عريقة فى الجامعات الأمريكية ، وقاما بخدمات كبيرة للمعيدين بقسمنا ، ولا زالا يذكران فضلنا عليهما فى كل مناسبة .

وقديماً قال الشاعر :

من يعمل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

اعمل الخير وارميه فى البحر ،فما لبث أن اقتنع بوجهة نظرى .

وأرى أن التدريب العملى المستمر هو السبيل الحقيقى لرفع المستوى الفنى للأطباء ، ولا بد من نقل التدريب الى أرضهم .

وعندما شرفنى الزملاء بانتخابى رئيساً لجمعية جراحى المسالك البولية المصرية ، انشأت بالجهود الذاتية مراكز تدريب للأطباء على عمليات المناظير الضوئية فى بعض المستشفيات بالمحافظات ، وتطوع للعمل معى بعض الزملاء الأفاضل ، فنجحت الفكرة نجاحاً مشرفاً ، وكنت ولا زلت أعمل وأتردد على هذه المراكز من أقصى مصر الى أقصاها بلا كلل ولا ملل ، ولم أشعر بتعب ولا ارهاق بالرغم من طول الطريق وجهد العمل ، وربما قد منحنى الله هذه القدرة لاخلاصى فى هذا العمل .

ولم تمر سنوات من العمل الجاد حتى تدرّب عدد كبير من الاخصائيين ، وارتفع المستوى الفنى بينهم ارتفاعاً كبيراً .

وإذا كان الحديث الشريف يقول ان الانسان يصبح نسياً منسياً إلا من ثلاثة ، الصدقة الجارية أو العلم النافع أو الولد الصالح .

وإذا كرّم الله الانسان بأن أعطاه العلم ، فليعطيه بنفس راضية وبلا حدود فسوف تنتفع به أجيال من بعده .

والانسان لا يريد أن يموت فهو يحمل فى خلايا جسمه غريزة حب البقاء ، وإذا حضره الموت فلا تزال الغريزة تلح عليه – فهو يريد أن تحيا ذكراه بعد مماته حتى يُبعث حياً . ولا غضاضة فى ذلك. فى مصر القديمة كانت فلسفتهم مادية ، حتى فى البعث الذى كانوا يؤمنون به ، فحفظوا أجسامهم وشيدوا المقابر والتماثيل والمسلات وكتبوا على جدرانها لكى يُخلدوا ذكراهم .

أما الاسلام فهو يتيح للانسان أن تُحيى ذكراه بعد مماته بالقيم الروحية السامية وبما ينفع الناس ، صدقة جارية ، علم ينتفع به كان يلقنه بأمانة ، أو ولد صالح رباه على المبادئ والقيم السامية يدعو له ، فالجسم الى فناء حتى يبعثه الله حياً .

وشوقى العظيم كان يدعو لهذه المبادئ ....

فاعمل لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للانسان عمر ثان

أو كما قال :

الناس صنفان موتى فى حياتهم   وآخرون ببطن الأرض أحياءُ

فى البحرية

فى سنة ١٩٨٥ وصلتنى دعوة من اللواء طبيب عبد الرحمن سعادة رئيس الخدمات الطبية البحرية للاحتفال بيوم الطبيب البحرى، ولتكريم الضباط الأطباء الذين أحيلوا الى التقاعد .

وهؤلاء الزملاء هم الرعيل الأول من الضباط الأطباء الذين انشأوا القسم الطبى فى البحرية المصرية ، وهم زملاء الدراسة والشباب ، وقد عملنا معاً سنوات طويلة ، وتربطنى بهم صداقات وعلاقات حميمة .

دخلت الى قاعة الاحتفال وتوجهت لكى أجد مكاناً للجلوس فى القاعة مع الزملاء من أطباء البحرية ، ففوجئت بالفريق على جاد قائد القوات البحرية يدعونى للجلوس على المنصة . ثم حضر بعد ذلك الأستاذ الدكتور جمال عزب رئيس قسم جراحة المخ والأعصاب بطب الاسكندرية والأستاذ الدكتور نادر سويلم رئيس قسم جراحة التجميل بجامعة عين شمس فدعاهما للجلوس على المنصة.

تكلم اللواء طبيب عبد الرحمن سعادة ، فرحب بالزملاء وشكرهم على ما قاموا به من جهد وتضحية فى السلم والحرب خلال سنوات خدمتهم فى القوات البحرية .

ثم تكلم أ.د. نادر سويلم وشكر القائد على دعوته لنا ، وقد فهمت من حديثه أنه أول طبيب خدم فى البحرية المصرية ، عندما كلف فى العمل كضابط بحرى فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ .

ثم قام الفريق على جاد ووجه حديثه الى الزميلين أ.د. نادر سويلم وأ. د. جمال عزب والىّ .

وقدم لنا درع البحرية المصرية وشهادة التقدير لما قمنا به من

خدمات للقوات البحرية ، تطوعاً ، على مدى سنوات طويلة ....

ثم قدم الدروع والشهادات التقديرية للزملاء من الضباط الأطباء .
كان كل ما حدث مفاجأة لى لم اكن اتوقعها ، ولكنها مفاجأة سعيدة أعتز بها - فالبحرية المصرية لها تاريخ ماضى مجيد ، كما أن لها تاريخ معاصر مشرف ، فقد رفعت رأسنا بعد هزيمة ١٩٦٧ باغراق المدمرة ايلات التى اعتدت على مياهنا الاقليمية ، وقامت بأعمال بطولية فى عدوان ١٩٥٦ ، وحرب الاستنزاف ، وبدور رائد فى حرب ١٩٧٣ .

لقد كُرِّمتُ فى مناسبات عديدة ، ولكن التكريم الذى أعطته لى البحرية المصرية ، ترك أثراً عميقاً فى نفسى ، كنت ولازلت أفخر به .

وعادت بى الذكريات إلى ايام ماضية - فلقد مرَّت سنوات وسنوات منذ أن طلَب منى رئيس الخدمات الطبية بالبحرية أن أُجرى عملية جراحية بالمستشفى البحرى لحالة مستعصية .

وواظبت على العمل بالمستشفى البحرى كلما استدعيت لذلك ، وكنت أشعر بسعادة عندما تنجح هذه الجراحات ، فقد كان بعض المرضى الذين أَجْريت لهم جراحات مقرراً لهم السفر الى الخارج ، وكان بعض هؤلاء المرضى ممن أصيبوا فى حوادث أثناء العمل أو التدريب .

عملت مع كثير من الزملاء بالبحرية وكان آخر من عملت معه الزميل العزيز الراحل الدكتور ابراهيم حسن .

كان رحمه الله قمة فى الالتزام بواجبه ورعاية مرضاه ، وكنت أداوم الاتصال بالدكتور ابراهيم حسن بعد إجراء العمليات للتشاور ومتابعة حالات المرضى .

وفى أحد الأيام اتصلت به للاطمئنان على حالة مريض كنت قد أجريت له عملية جراحية استغرقت عدة ساعات ، وكان الدكتور ابراهيم قد اشترك معى فى هذه العملية .

فأخبرتنى كريمة الدكتور ابراهيم أنه تعرّض لأزمة صحية بعد عمله بالعمليات ، فأدخل المستشفى ولكن حالته الصحية ساءت فنقلوه الى مستشفى المعادى بالقاهرة على طائرة حربية ...

لم تتحسن حالته بالرغم من الرعاية الطبية ، وتوفى الى رحمة الله تعالى بعد مدة قصيرة ...

هل يعلم المريض كم يقاسى الطبيب من أجله ؟

لقد تركت هذه الحادثة فى نفسى حزناً عميقاً ، ولكنها ارادة الله ولا راد لقضائه ....

لقد عملت فى الحقل الطبى سنوات طويلة ، ورأيت زملاء على أعلى مستوى من الانسانية فى تعاملهم مع المرضى ... ولا شك أن الدكتور ابراهيم حسن كان مثلاً مشرفاً من هؤلاء الزملاء .

القرية المصرية ومتاعب العمدة



العمدة هو قوة القانون في القرية ، هكذا تحكم القرية منذ آلاف السنين بهيبة القانون .

وفي مصر أكثر من ٤٠٠٠ قرية إذا أُحسن حكمها استتب الأمن والنظام في ريف مصر .

وإذا كان قلة من العمد ليسوا على مستوى المسئولية ، فالغالبية العظمى على أعلى مستوى من الأخلاق والأمانة .

فالعمودية تكليف كانت تتوارثه العائلات التي تحافظ على سُمعتها وشرفها . وكان العمدة يحل كثيراً من مشاكل القرية ، فالسارق يدفع غرامة مالية تُعادل أضعاف قيمة ما سرقه ، ويُحقَّر شأنه في القرية ، والذي لا يرد الدين يُجبره العمدة على رده ، وهكذا ....

فلما سقطت هيبة القانون ، سقطت هيبة العمدة تلقائياً .

وزاد الطين بلة تجنيد وسائل الإعلام المختلفة خصوصاً التلفزيون

لتحقير العمد والحط من شأنهم ، باصرار عجيب وتخطيط منظم .

سرق أحد الفلاحين بعض المحاصيل ، فطلبت من العمدة أن يحضر لكى نحل المشكلة بما يحكم به العرف ، فلم يحضر ، فسلمنا اللص الى المركز . ولما عاتبت العمدة بعد ذلك قال : « يا دكتور لم تعد لنا قيمة فى هذا البلد - كل يوم تمثيليات تحقر من شأننا فأحياناً يصوروا العمدة رجلاً أبله ، وأحياناً قاتلاً أو سارقاً أو معتدياً على الأعراض » .

هل تعلم عنى مثل هذه الأشياء : والدى وجدى كانوا عمداً محترمين ، وطالما خدمنا الناس وقضينا لهم مصالحهم ورعينا مرضاهم كما تعلم . كما خدمنا الدولة وعندى خطابات تقدير من كبار الحكام ، وجدى كان له دوراً وطنياً فى ثورة سنة ١٩١٩ . والجميع يعلمون ذلك.

هناك بعض الفلاحون العائدون من العراق أو الخليج يتعمدوا رفع صوت التلفزيون والڤيديو لكى يسمعونى « ما يسم البدن» من أصوات الممثلين « العمدة الحرامى القاتل - حيروح فى داهية» .. وهكذا - كيف أتعامل مع هؤلاء الملاعين » .

فى إحدى التمثيليات كان فيها عمدتين ، واستثناء للقاعدة أن يكون أحدهما طيب والآخر شرير ، جعلوا أحدهما قاتلاً والآخر يعتدى على الأعراض - هكذا ، ما داما يحملان لقب عمدة .

لم تعد لنا قيمة أو هيبة فى هذا البلد فليذهب اللص الى المركز ليأخذ جزاؤه» .

انى أتساءل ما هو المنطق فى ذلك - هل هناك تخطيط لتدمير القيم والأخلاق والأمن فى الريف .

لقد امتلأت المحاكم بالقضايا التافهة من مشاكل القرية التى كان يحلها العمدة بسهولة ، فهو يعرف كل صغيرة وكبيرة فى قريته - زاد العبء على القضاة بدرجة غير معقولة لمصلحة من هذا !! .

وإذا كان هذا هو رأى الدولة فى العمد فلماذا لم تلغ هذا النظام؟ لغز لا يمكن فهمه أو تفسيره !

لقد أهلك من كان قبلكم إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها

حديث شريف

العدل أساس المُلك والشعور بالظلم أبغض شئ على نفس الانسان كما أن عدم المساواة فى معاملة الناس من أسوأ صفات الحاكم المستبد، والاسلام حسم ذلك ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

فالجميع سواسية كأسنان المشط وإذا خرج أحد على القانون فلا بُد من عقابه حتى لو كانت فاطمة بنت محمد .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فهو قمة فى العدل فلقد بنى الدولة الاسلامية ووطد أركانها بقوة العدل وسلطانه .

فعندما اعتدى ابن عمرو بن العاص على مصرى لأنه - تفوّق عليه فى سباق الخيل ، أعطى المصرى عصاه وقال له « اضرب ابن الأكرمين» .

أخبرنى صديق لى وهو محام قدير ، عن أن عقاب السارق فى القانون الرومانى « إذا كان السارق من الأشراف يدفع غرامة مالية ، أما إذا كان من عامة الشعب فتتراوح عقوبته من السجن الى الاعدام .

« لقد فهمت الآن من هم « الذين أهلكوا من قبل» وهذا هو اجتهادى .

والقاضى هو ظل الله فى أرضه إذا حكم بين الناس بالعدل ، يحضرنى فى ذلك ما رُوى عن الجنرال ديجول عندما عاد الى فرنسا بعد أن حررت من الألمان وكانت فرنسا مدمرة تماماً .

- سأل المسؤولين - كيف حال القضاء ؟

- ان القضاء شامخاً كما هو ، فلم يمس .

- إذاً ستحيا فرنسا ، وستعود أحسن مما كانت .

كما أن أستاذ الجامعة أو المعلم يجب أن يكون عادلاً ، فلقد كرّمه الله بنعمة كبيرة ، نعمة العلم، ويجب أن يلقّنها بأمانة ويساوى بين من يأخذ العلم عنه ،لا فرق فى المعاملة بين طالب وطالب فكلهم أبناؤه .

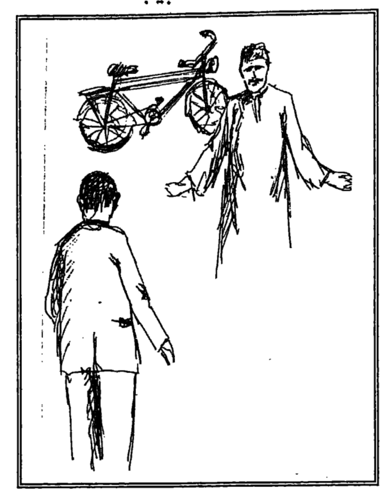
أما إذا كان المعلم طبيباً أيضاً ، فلقد كرّمه الله أكبر تكريم فجعل بين يديه أرواح الناس وعقولهم ، فهو يعالج المرضى ويثقف العقول . فإذا تحلّى بالأمانة والعدل ، فلقد فاز فوزاً عظيماً .

وشوقى العظيم يرى أن المعلم هو رسول المعرفة بين الناس ولكن يجب أن يكون عادلاً ، وإلا قضى على كل القيم والمبادئ فى الشباب .

قم للمعلم وفه التبجيلا	كاد المعلم أن يكون رسولا
وإذا المعلم لم يكن عدلا مشى	روح العدالة فى الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لحظ بصيره	جاءت على يده البصائر حولا

اطلب من الله سبحانه وتعالى أن يبصرنا وينير لنا طريق العدل والصواب فهو السميع المجيب .

سعادة الطبيب



فى سنة ١٩٨٥ كنت أسير فى أحد شوارع المحلة الكبرى فتوقف فجأة الى جانبى رجلاً كان يقود دراجة مسرعاً وسلّم علىّ بحرارة واحتضننى وبلغ من تأثره أن اغرورقت عيناه بالدموع .

– هل تعرفنى ؟ .

– أنا أتذكر وجهك جيداً – أين تقابلنا ؟

– لقد أجريت لى عملية فى ساقى اليمنى سنة ١٩٥٤ وكنت قد نقلت الى المستشفى بعد أن دهمنى قطار الدلتا (وهو قطار صغير يسير بين القرى ويدخل مدينة المحلة الكبرى من طريق كفر الشيخ ويسير فى أحد شوارعها) .

كان مقرر لى أن تُبتر ساقى اليمنى ، ولكنك أجريت لى عمليات ولم تبترها - وأنا استعملها منذ ذلك الوقت بكفاءة وأسوق الدراجة كما ترى .

- نعم تذكرتك - كنت حديث العمل بالمستشفى ، ولقد أُحضر هذا المصاب الى المستشفى وكان مقرراً له بتر الساق اليمنى لوجود كسور مضاعفة وتهتك شديد بالأنسجة .

ولكننى وجدت الأوعية الدموية الرئيسية سليمة ، فطلبت من مدير المستشفى الدكتور عبد السلام الطويل ، وكان رجلاً فاضلاً ، أن يترك لى هذا المصاب لكى أُجرى له العملية الجراحية وأحاول أن أحافظ على ساقه ، فأذن لى . ومكث المريض بالمستشفى مدة طويلة أجريت له العملية العاجلة ، وعمليات تكميلية لزرع الجلد فى الساق لتغطية المناطق المكشوفة وعمليات فى القدم لاخراج بعض العظام المتآكلة - ونتج عن ذلك أن فقد المريض اصبعين صغيرين من أصابع القدم - وهذا الفقد لا يؤثر على كفاءة استعمال القدم .

وكان أستاذنا الدكتور يوسف الأعسر أستاذ التشريح يقول « إن أصابع القدم لها قيمة فى القرد لكى تساعده على تسلق الأشجار ، لذلك تجدوا اصبع القدم الأكبر فى القرد ليس فى حِذاء الأصابع الأخرى ولكن فى مقابلتها حتى يمكنه القبض بقدمه على فروع الأشجار ، أما فى الانسان ففائدتها محدودة .

لقد مرّت على هذه الحادثة أكثر من ثلاثين عاماً والرجل يستعمل ساقه بكفاءة ، وقد عمل كل هذه السنين ولايزال يعمل بصورة طبيعية .

- أنا سعيد جداً برؤيتك ويسعدنى أنك فى حالة طبيعية وساقك حالتها جيدة ولكن لماذا تبكى ؟

– أبكى من تأثرى برؤيتك بعد ثلاثين عاماً ولأننى لا يمكننى أن أرد جميلك علىّ ، انها معجزة التى قمت بها لانقاذ ساقى .

– أى جميل واية معجزة يا رجل إننى لم أقم بغير واجبى ، وهذا عملى ومسئوليتى وقد وفقنى الله فى نجاح جراحتك ويسرنى أن أراك دائماً .

إن هذا المريض هو نموذج أصيل من أفراد الشعب المصرى يحمل بين جوانحه التقدير والوفاء .

إن سعادة الطبيب عند نجاحه فى انقاذ مريض لا تعادلها سعادة فى الوجود .

الحب

قرأت مقال « ومن الحب ما قتل» للكاتب الكبير أنيس منصور ، المادة الأدبية ممتازة وأُعجبت بعبارة « ولا يكون القلب إلا سلطاناً على عرش العقل والجسم والحاضر والمستقبل » وعبارة أن القلب هو عمق الشعور الانسانى» .

انها اكثر شاعرية وأكثر رومانسية أن يكون القلب هو موطن الحب ، ولكنى كطبيب لا يمكننى أن أنفصل عن حقائق العلم فأقول « ان القلب عضلة لا تعى ولا تحمل شعوراً أو ذاكرة فما هى إلا مضخّة تضخ الدم لتغذية كل أجزاء الجسم ومنها المخ ..

واعجازها أنها لا تتوقف أبداً عن العمل إلا بانتهاء الحياة .

إن المخ هو السلطان الذى يحكم الجسم والقلب والحاضر والمستقبل ، هو كل شئ ، هو المعجزة التى وضعها الله جلّت قدرته فى الانسان فخلقه فى أحسن تقويم وفضّله على كثير من العالمين .

المخ هو موطن الحب وكل المشاعر التى يحملها الانسان من حب وكراهية وشجاعة ومروؤه وشرف ...

أما إذا أسرع القلب وزاد من قوة ضرباته عند رؤية المحبوبة ، فما ذلك إلا لكى يزيد من تدفق الدم الى أعضاء الجسم ومنها المخ حتى يتحمل العبء الذى حدث من هذا الموقف الطارئ يحدث نفس الشئ ، عندما تزيد ضربات القلب عندما يقوم الانسان بجهد زائد كالجرى والرياضة مثلاً ... وإذا تلف القلب ونقل مكانه قلب آخر ، فلا يشعر المريض الذى نقل اليه القلب بالحب الذى كان يحمله صاحب القلب السليم ، كما لم يفقد المريض الذى انتزع قلبه ونقل اليه قلب آخر بالحب الذى يشعر به .

من ذلك نرى أن المخ بلا جدال هو مَوْطن الحب ، ولو أن الأكثر

جمالاً والأكثر رومانسية أن يكون القلب هو موطن الحب .

وليكن موطن الحب كما يكون ، أما عاطفة الحب فقد حار فيها الشعراء والأدباء .

هو شعور عجيب يستولى على الانسان فيجعله أسيراً له .

لا يخضع لأى قانون أو منطق وليست له مقاييس ثابتة ، يقول شوقى مشطراً بيتاً للبهاء زهير .

يقول أُناسٌ لو وصفت لنا الهوى   لعل الذى لا يعرف الحب يعرف

فقلت لقد ذُقْتُ الهوى ثم ذُقْتُهُ   فو الله لا أدرى الهوى كيف يوصف

أما بيرم التونسى فهو يستغيث من الحب وما يجلبه على الناس من مشاكل ومصائب :

دا اللى جرى وصار للعشاق   مكتوب فى أوراق

ما بين دلال ووصال وفراق   العاشق مات

الحب خلاّ ناسات سهرت وناسات كفرت

وياما فيه ناس انتحرت فى الدهبيات .

أما الفيلسوف إبن عربى فيرى بعد تردد ، أن الحب هو مذهبه وعقيدته :

أدين بِدين الحبِ انى تَوَجَّهت   رَكائبه فالحب دينى وايمانى

والحب كما أراه هو قمة الفضائل والطريق القويم الى مجتمع انسانى عظيم .

فحب الله هو الايمان ، وحب الوطن هو الوطنية ، والحب بين الرجل والمرأة هو كيان الأسرة ، وحب المجتمع هو الانتماء وياويل لأمة فقد أبناؤها الانتماء ، وحب العمل هو الاتقان ، وحب الزمالة هو

التـعـاون ، وحب الرئيس هـو النظام وحـب الضـعـيف هى الانســانيـة ، وحب المريض هى الرحمة .

والله رحيم كما جاء فى القرآن والله محبة كما جاء فى الانجيل .

توت عنخ آمون

نشرت الصحف الانجليزية سنة ١٩٨٣ أن حفيد لورد كارنارفون عثر صدفة فى حجرة مهجورة فى القصر على عشرات القطع من مقبرة توت عنخ آمون ، وعرضها للبيع .

واللورد كارنارفون هو الذى موّل مستر كارتر الذى اكتشف مقبرة توت عنخ آمون فى أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

وتوت عنخ آمون من ملوك مصر فى عهد الدولة الحديثة ، وعهد الامبراطورية التى حكمت مصر من (١٥٨٠ – ١٠٨٥ ق.م.) .

وقد أرضى توت عنخ آمون الكهنة عندما أعاد ديانة آمون ، التى كان قد غيّرها أخاه اخناتون بعبادة الشمس كرمز للتوحيد .

مات توت عنخ آمون صغيراً فلم يكن من ملوك مصر العظام ، ولما اكتُشفت مقبرته ، أصبح أشهر ملوك مصر بل أشهر ملوك العالم . وقد كثرت الشائعات حول اللورد كارنارفون ، أنه أخذ خفية أغلى ما فى الكنز من تحف بينها تاج الملكة وعقدها ، وخصوصاً عندما أهدى الى ابنة ملك انجلترا عقداً مصرياً له قيمة عظيمة . ومات لورد كارنارفون فى القاهرة فى ١٥ ابريل سنة ١٩٢٣ وقيل أن سبب الوفاة بعوضة لدغته ، وقيل أنها لعنة الفراعنة .

وقد ذكر شوقى هذه الواقعة فى قصيدته الرائعة التى كتبها ، يؤرخ فيها عظمة مصر القديمة ويبدأ القصيدة بمخاطبة الشمس يقول :

قفى (يا أخت يوشع) خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

ثم يوجه كلامه الى اللورد :

أبوتنا وأعظمهم تراثا نحاذر أن يؤول لآخرينا
سكت فحام حولك كل ظن ولو صرّحت لم تُثِرْ الظنونا

يقول الناس في سر وَجَهْرٍ ومالك حيلة في المرجفينا
أمن سرق الخليفة وهو حَيٌّ يعف عن الملوك مكفنينا

اتهام صريح من شوقي ولكن أين الدليل ؟

وتمر السنون ويأتي الدليل من بضعة سنوات .

وظهر اللورد اللص على حقيقته ، بعد وفاته بأكثر من ستين عاماً. وها هو حفيده يبيع المسروقات . ومن شابه جده فما ظلم .

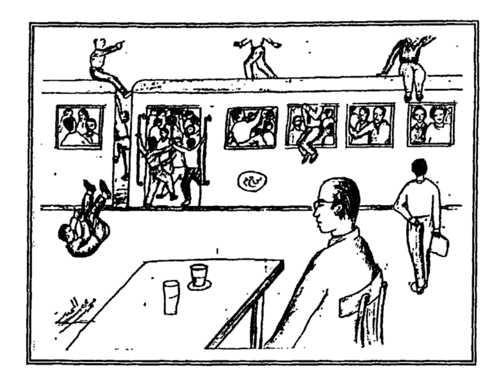
لقد سُرقت مقبرة توت عنخ أمون مرتين .

المرة الأولى في العصر الفرعوني خلافاً لما يعتقده بعض الناس من أنها لم تسرق من قبل - وقبض على اللصوص ولم يكن قد سرقوا إلا قليلا - ثم أقفلت المقبرة بعد ذلك ، ووضع الملك الذي كان يحكم مصر خاتمه على المقبرة لكي يثبت حفظه لها .

وعندما دخل كارتر المقبرة وجد أن بعض الأثاث بها مبعثر وبعض القطع المدونة على غلاف الصناديق ناقصة ، سرقها اللصوص ، أما المرة الثانية فقد سرقها اللورد .

رحم الله شوقي فقد كان حاد البصيرة .

قطارات مصر



ان هيئة السكة الحديدية المصرية لهى من أعرق مصالح السكك الحديدية فى العالم .

فقد انشأ عباس الأول ١٨٥٢ – ١٨٥٦ ثانى خط فى العالم بين القاهرة والاسكندرية بعد انجلترا – قبل أوربا وقبل أمريكا – فلما حكم الخديو اسماعيل ، مدّ ١٠٠٠ (ألف) ميل من السكة الحديدية فى مصر .

ولا تزال السكة الحديدية المصرية تقوم بخدمات جليلة ، وقد تحسن الحال فى السنوات القليلة الماضية .

ولكن إذا نظرت الى قطار أبى قير وجدت مئات من الناس يقفون على السلالم وعلى القاطرة – أطفال وطلبة ورجال . وهم متشبثون فى مواقعهم بمهارة ، ولكن الأمر لا يسلم أحياناً ، وعندما يسقط أحد الأطفال غالباً يصاب ، فيما يصاب به ، بكسر فى الحوض العظمى

وقطع فى مجرى البول الخلفى وهى اصابة خطيرة من الصعب اصلاحها .

ولكثرة هذه الاصابات وخصوصاً فى الأطفال ، كنت قد أجريت عمليات كثيرة لاصلاح هذه الاصابة .

ألقيت محاضرة عن اصلاح هذه الحالات فى جامعة ميونيخ سنة ١٩٨٦ تعجب الأستاذ الألمانى « لم نر إلا حالة واحدة فى الثلاث سنوات الماضية » ما الذى يكسر هذا العدد من الأطفال .

– انهم أطفال أشقياء يتسلقون الأشجار ويسقطون من فوقها .

لم أستطيع أن أقول أنهم يتسلقون القطار .

وفى مساء اليوم نفسه قالت لى إحدى الطبيبات أنها زارت مصر وأعجبت بها ، ولكنها لاحظت أن كثير من الناس يركبون فوق القطارات ، احراج ، ولكنها ربما فسرت لهم هذا العدد الضخم من الاصابات .

سألنى دكتور دونالد سميث وهو أستاذ أمريكى زائر من سان فرنسيسكو كان يعمل فى قسمنا – عن هؤلاء الجنود الذين يركبون فوق القطار . تصدى أحد النواب بالقسم للرد عليه .

– انهم أفراد من الكوماندوس يتدربون .

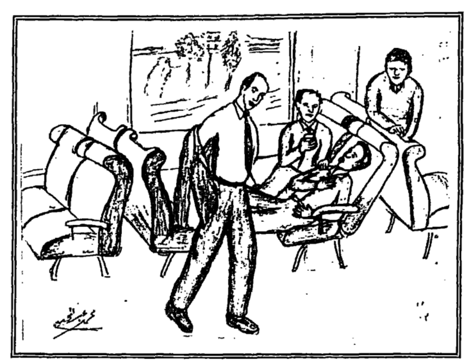
– حسناً ، ولكن لماذا يغنون ويرقصون .

– زيادة فى تحديهم للخطر ، « ولا أعتقد أن الأستاذ سميث قد صدّقه» لا أنسى منظر جندى فصلت رقبته من جسمه فوق القطار وكان الدم يتساقط على زجاج النافذة ، بجوارى فحمل الناس جثمانه ووضعوه على رصيف محطة بنها وغطوه بالجرائد .

وجندى آخر كسرت ساقه أمامى وهو يقفز من فوق القطار فى المحلة الكبرى فحمله الأهالى وربطوا ساقه حتى يحضر رجال الاسعاف.

هل يوجد نظير لهذا الوضع فى أى مكان فى العالم ؛ لا أعتقد .

قطار القاهرة الاسكندرية التوربينى



القطار السريع ينهب الأرض فى الطريق الى الاسكندرية مساء يوم من أيام الشتاء القارصة البرودة .

– الحق يا دكتور « راكب تعبان قوى» .

أنا «زبون» دائم فى القطارات ، ولم يكن هذا أول استدعاء عاجل لى بالقطارات .

ذهبت مع رئيس القطار فوجدت راكباً عنده ذبحة صدرية وحالته غير مطمئنة ووجهه يتصبب عرقاً .

طلبت من الركاب أن يبتعدوا عن المريض ويتركوا له مساحة هادئة فاستجابوا فوراً .

وكان المريض يرتجف ، فخلع بعض الركاب ملابسهم وغطوا بها المريض – سلوك انسانى ولا شك .

– لا لا يوجد فى القطار أى دواء .

أشار الى المريض وأخرج من جيبه أقراص توضع تحت اللسان لكى توسع شرايين القلب فوضعت له قرص ووقفت بجانبه عاجزاً على أن أعمل شئ . تحسنت حالة المريض قليلاً – القطار لا يقف إلا فى سيدى جابر اتصلت باللاسلكى بالاسعاف وطلبت منهم الانتظار على الرصيف . نقلنا المريض بمساعدة بعض الركاب على عربة العفش الى عربة الاسعاف ثم نقلته الى مستشفى المواساة وأوصيت الزملاء عليه وقد تحسنت حالته بعد عدة أيام وشكرنى بالتليفون .

تذكرت حادثة منذ سنوات عندما تحطم زجاج إحدى نوافذ القطار وسقطت قطع الزجاج على وجه طفل رضيع فأمكننى رفع قطع الزجاج الصغيرة ولم يجرح وجه الطفل . أليس من المستحسن أن يكون فى القطار صيدلية صغيرة بها بعض الأدوية الضرورية والشاش والقطن ؟ ....

كتبت الى المسؤولين بالسكة الحديدة فلم أتلقى رداً ولم يحاول أحد اصلاح هذا النقص .

حادثة فى قرية

حضر الى عيادتى مريض كبير السن مصاب بكسر فى الحوض العظمى وباصابات بالغة من سقوط جدار منزل فوقه وحالته خطيرة وعنده نزيف داخلى نصحت أقاربه أن يذهبوا الى المستشفى العام فوراً فرفضوا ، وأصّروا أن يدخلوه مستشفى خاص .

قمت باجراء الجراحة وكانت تكاليف العلاج باهظة والمريض رقيق الحال .

دفع أهل المريض أتعاب العملية وشكرونى على ما قمت به من جهد – توفى المريض بعد أيام بالرغم من الرعاية ، رفض أهل المريض أن يستردوا الأتعاب بعد أن عرضتها عليهم .

– أرى أن تقوموا بانشاء صندوق لحالات الحوادث يُحفظ عند من تثقون فيه ، ويُمَوَّل من الأهالى كل على قدر طاقته ، فذلك اكرم لأى مصاب ، لكى يعالج فى مستشفى خاص .

وأرى أنكم لا تريدون أن تذهبوا فى مثل هذه الحوادث الى المستشفى العام ، فهذا هو الحل لمثل هذه الحوادث وأرجوكم أن تقبلوا منى هذا المبلغ وليكن نواة هذا الصندوق ، فقبلوه على هذا الأساس .

إن الفلاح الذى يعمل على ذراعه كما يقولون ، ليس له نقابة ولا تأمين صحى وهو ضعيف لا يمكنه دفع تكاليف علاج مفاجئ .

– يا جماعة انكم تشتركوا فى مثل هذا المشروع للتأمين على المواشى أليس الانسان أولى بذلك .

فاقتنعوا برأيى وانصرفوا .

أحلام اليقظة

وهذه الأحلام تراود الانسان وهو بين النوم واليقظة .

عجيب أمر هذا المخ البشرى فهو يعمل بلا كلل حتى أثناء النوم يعيش فى أحلام سعيدة أو مزعجة .

الليلة التى تسبق اجراء جراحة كبيرة لمريض يكون نومى قلقاً بعض الشئ ، كالقائد الذى يكلف بعملية حربية أو بوليسية ، فهذه معركة ضد العدو وهذه معركة ضد المرض . وكثيراً ما تنتابنى أحلام اليقظة فأصحح بعض خطط العملية ، ولا ألبث أن أترك الفراش وأضيئ الحجرة ثم أدوّن هذه الأفكار وربما فتحت دولاب الآلات فأضيف آلات الى حقيبة الآلات التى سأحملها فى الصباح .

أما فترة ما بعد العملية فلا تزال هذه الأحلام تراودنى فيتكرر نفس الشئ وأكتب تعديل لخطط العلاج وكثيراً ما أتصل بالطبيب المقيم وأوقظه لكى يعدل فى العلاج . هل يعلم المريض كم يقاسى الطبيب من أجله ؟

ويتكرر نفس الشئ عند كتابة مقالة علمية - فهى حصيلة سنوات من العمل الجاد والبحث والتسجيل .

والمقالة المكتوبة بدقة وأمانة هى عملية شاقة مجهدة . أحياناً تأتى لى بعض الأفكار فى أحلام اليقظة فأترك الفراش وأدوّن الملاحظات خشية أن أنساها فى الصباح .

ما أعجب المخ البشرى الذى يفكر ويخطط بكفاءة فى أحلام اليقظة أكثر منها أحياناً فى حالة اليقظة .

المتنبى طبيباً

٣٠٣هـ - ٣٥٤هـ

٩١٥م - ٩٦٥م

وما الدهر إلا من رواه قصائدى   إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

شغل الدنيا وما زال يشغلها ، فقد مر أكثر من ألف عام ومازال الدهر له منشداً . لم يخفض رأسه أبداً لانسان ولم يقف أمام سيف الدولة ولم يُقَبِّل الأرض بين يديه كما فعل غيره .

عبقرى يعرف قدره ، ولا يقبل أن يعلو عليه أحَد .

حتى الجالسون على العروش أصحاب التيجان فهم الى زوال ، أما عرشه فهو ثابت مكين ، أو كما يقول الشاعر أحمد محرم عنه :

تقف العواصف دون عرشك ركّدا   والدهر يرمى بالعروش ويَعصف

ويظل تاجك ما له من خاطف   والناس والتيجان حولك تُخطف

عندما يرثى جدته يقول :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد   لكان أباك الضخم كونك لى أما

وعندما يفخر بقومه :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم   بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وعندما يتكلم عن نفسه :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صمم

وإذا قال الحكمة بلغ قمة البلاغة ، فى قصيدة واحدة له ثلاثة أبيات،

لا أعتقد أن أى مهتم بالشعر العربى لا يعرفها ولا يحفظها ولا يستشهد بها :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعمُ
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعله لا يظلمُ
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدمُ

كل بيت منها يفوق قصيدة من الشعر لشاعر كبير .

والمتنبى فليسوف بالفطرة تتدفق الفلسفة بين أشعاره ولا يتكلف صنعها .

أبنى أبينا نحن أهل منازل ... أبداً غراب البين فيها ينعق
نبكى على الدنيا وما من معشر ... جمعتهموا الدنيا ولم يتفرقوا

ان من يقرأ هذه الأبيات يتذكر أفراد أسرته واخوانه الذين رحلوا الى رحاب الله ، أو بعدوا عنه فى الدنيا ، فيعتريه الحزن وألم الفراق ، ولكن هذه هى سنَّة الحياة وإن كانت تغيب عنها .

ولقد فلسف لنا المتنبى فكرة الموت وسهلها ، فهى حقيقة لا بديل عنها وهى آتية لا محالة :

نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا ... على زمان هى من كسبه
فهذه الأرواح من جَوّه ... وهذه الأجسام من تربة
وغاية المفرط فى سلمه ... كغاية المفرط فى حربه

وإذا مدح بلغ بالممدوح القمة ورفعه الى أعلا المراتب ، ولكن يبدأ قصيدته بالغزل كأسلافه الشعراء العظام ، ويثريها بأبيات من الحكمة ، ويفخر بنفسه ، فهو يعرف قدره ، ولا مانع من أن يمدح الممدوح بعد ذلك ، وليس ببعيد أن يعاتبه . فهو لا يخفض رأسه لأحد ولا يستجدى أياً من كان .

يقول لسيف الدولة :

إن كان يجمعنا حبا لغرته	فليت إنّا بقدر الحب نقتسم
فكان أحسن خلق الله كلهم	وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم
إن كان سَرّكُمُ ما قال حاسدنا	فما لجرح إذا أرضاكم ألم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى	فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى	وأسمعت كلماتى من به صمم

وسيف الدولة كان حاكماً صالحاً وقائداً عسكرياً شجاعاً ، حمى الدولة الاسلامية وهزم الروم ، فهو جدير بهذا المدح وجدير بهذا التكريم .

والمتنبى فارس شجاع يشترك مع سيف الدولة فى القتال ويعتبر نفسه رفيق سلاح ، ويلقى الشعر الحماسى فيحرض الجنود على القتال ، ويرفع شأن سيف الدولة فى حياته ويخلده بعد مماته .

ومهما كان عطاء سيف الدولة للمتنبى ، فلا يمكن أن يقارن بما أعطاه المتنبى لسيف الدولة وللأمة الاسلامية .

– وإذا أُخذ عليه أن يتكسب من الشعر ، فأرى أنه لا غضاضة فى ذلك ، فقد كان الشعر فى هذا العصر يقابل الكتاب المطبوع والصحافة ووسائل الاعلام المختلفة فى عصرنا ، كأسلوب للدعاية ونشر الأفكار والمذاهب .

وهذه الوسائل يُدفع فيها الكثير الآن ، فلا حرج فى ذلك ...

وليس من المبالغة فى شئ إذا قلنا أن الشعر كان الوسيلة الأساسية فى الاعلام فهو ينتشر بسرعة انتقال الناس بين أرجاء الدولة الاسلامية ، ويظل يُردد على السنتهم شهوراً وسنيناً – هل توجد وسيلة للاعلام أقوى من ذلك وخصوصاً إذا كان الشعر هو شعر المتنبى .

وإذا هجى كان سوطاً لا يرحم وأصبح هجاؤه يردد باللسان

العربى أكثر من ألف سنة ولا تملك نفسك من الضحك بصوت مسموع إذا قرأت لدغاته ، يقول لكافور الاخشيدى :

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا ... وأن مثل أبى البيضاء موجود

وقوله :

وتعجبنى رجلاك فى النعل أننى ... رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا
ومثلك يُأتى من بلاده بعيده ... ليضحك ربات الحداد البواكيا

وكافور كان حاكماً لمصر ، وكان قد سعى وألحّ على المتنبى أن يأتى الى مصر ، فحضر المتنبى بناء على الحاحه . وكافور كان يتذوق الادب ويُقَدّر الشعراء فوجد فى المتنبى ضالته – وقد مدحه المتنبى ومَجّدُه ورفع ذكره – وكان كافور قد وعده بأن يوليه ولاية فى مصر ، ثم لم يلبث أن خلف وعده – والمتنبى يرى أنه جدير بذلك ، ويرى أنه أعلا قدراً من أى حاكم فثار على كافور ، وهذا حق له .

وإذا نظم فى الغزل بلغ أسمى درجات الرقة والجمال :

أرق على أرق ومثلى يأرق ... وجوى يزيد وعبرة تترقرق
ما لاح برق أو ترنم طائر ... إلا إنثنيت ولى فؤاد شيق
وعزلتُ أهل العشق حتى ذُقتُه ... فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وإذا وصف أبدع ، وعرض صورة شعرية كأنها لوحة حية يراها القارئ ويتمتع بها – أنظر اليه وهو يصف حديقة :

مَغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزله الربيع من الزمان
فسرت وقد حجبن الحَرّ عنى ... وجئن من الضياء بما كفانى
والقى الشرق منها فى ثيابى ... دنانيرا تفر من البنان
لها ثمر تشير اليك منه ... بأشربة وقفن بلا أوان

وإذا قرأت وصفه للأسد خيل لك أن الأسد أمامك يستعد

للانقضاض عليك :

يطأ الثرى مترفقا من تيهه فكأنه آسٍ يجس عليلا

ويرد عفرته الى يأفوخه حتى تصير رأسه إكليلا

ما زال يجمع نفسه فى زوره حتى حسبت العرض منه الطولا

وعندما تحدّاه أعداؤه ، وكانوا يفوقونه عدداً وعدّة ، لم يتراجع، وحارب حتى الموت مدافعاً عن كرامته ، كيف أتراجع وأنا القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

نعم حارب بشرف وعاش عزيزاً ومات كريماً .

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

ولو أن الحياة تبقى لحيٍّ لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جبانا

فهو صاحب مبادئ ثابتة ، وقيم سامية ، يأمن بها ولا يتراجع عنها. فهو ليس من الذين « يقولون ما لا يفعلون» فهو يفعل ما يقول وما يعتقد أنه صواباً حتى لو كان فى ذلك نهايته .

– عندما أصابته الحمى بمصر سنة ٣٤٨هـ ، ٩٦٠ م ولعلها الملاريا وصفها بدقة وكأنه طبيب متمكن مشبهاً الحمى بغانية تزوره فى الظلام يقول :

عليل الجسم ممتنع القيام كثير السكر من غير المدام

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت فى عظامى

إذا ما فارقتنى غسّلتنى كأنّا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سِجام

أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شرٌّ إذا ألقاك فى الكرب العظام

بهذا الوصف الدقيق عبّر المتنبى عن آلام الجسم ، والهذيان ، وآلام العظام ، والحمى التى تعتريه كل مساء ، وزوالها عندما يصبح الصباح والنافض الذى يسبقها ، والعرق الشديد التى تنتهى به .

هل يمكن لطبيب متمكن أن يدوّن ملاحظاته الطبية بدقة أكثر من ذلك ، وهل كتب فى أى كتاب فى الطب وصفاً للحمى أوضح من ذلك .

وقد كان تقدم علم الطب وازدهاره فى هذا العصر على أيدى الأطباء العرب يرجع فى المقام الأول الى تقدم الطب السريرى «الاكلينيكى» ، فلم تكن الوسائل المعملية والتصويرية قد وجدت سبيلها كوسيلة للتشخيص . وما الطب السريرى إلا قوة فى الملاحظة ودقة فى التعبير وبراعة فى التصوير ، ولا أظن أنه يوجد بين شعوب الأرض من أجاد ذلك مثل العرب . كما أن اللغة العربية غنية بألفاظها وأصولها. والتشبيه ضرورة يحتاج اليها الطبيب لوصف المرض وأعراضه – وإذا كان الطب الأوربى يستعمل التشبيه فى وصف الأمراض ، فيشبه الكليتين الملتصقتين بحدوة الحصان ، وورم الغدة الدرقية بالفراشة ، فما ذلك إلا تقليداً للطب العربى القديم .

فإبن سينا يسمى طبقة العين الخارجية بالقرنية ، لأنها فى لون قرن البقر المجوف الذى كان يستعمل فى الزينة وتوضع بداخله شمعة مضيئة ، والطبقة التى حولها بالبيضيه لأنها تشبه البيضه – والأمثلة على هذا كثيرة .

أما المتنبى فهو يشبه الحمى التى تصيبه فى المساء وتزول عنه فى الصباح بغانية تزوره خلسة فى المساء لأن بها حياء ، ثم تنصرف عنه فى الصباح ، فهى غانية ، قمة فى التشبيه البليغ .

والطبيب العربى كان أيضاً أديباً وفيلسوف وربما شاعراً كابن سينا .

وبفضل هؤلاء الرواد الأول ازدهر الطب فكان العصر الذهبى للطب العربى ، الذى امتد من منتصف القرن الثامن الميلادى حتى نهاية القرن الحادى عشر .

ولو كـان المتنبى قـد اتجـه الى ممارسـة الطب لنبغ فـيـه ، فـهـو فيلسـوف حكيم يحمل موهبة أصيلة فى دقة الوصـف وبراعة التعبير فضـلاً عن أن به اصرار على التفوق .

ولكان قـد انضـم الـى الرعـيل العـبـقـرى من الأطبـاء الـعظام الذين عاصـروه .

ابن سـينا والرازى والزهراوى .

ولكن لو كان هذا قد حدث ، لفقدت العربية شاعراً فذاً .

الأستاذ العقاد والعيب في الذات الملكية
والقضاء المصرى العريق

نشرت إحدى الصحف فى يوليو سنة ١٩٩٣ مقالة عن عباس العقاد جاء فيها .... « وفى نفس الوقت ، العملاق الصلب العنيد الذى وقف يدافع عن الدستور رغم أنف أكبر رأس فى الدولة وكان وقتها الملك فؤاد وسجن من أجل موقفه تسع سنوات ؟

والحقيقة أن الاستاذ العقاد رحمه الله سُجن تسعة أشهر فقط وليس تسع سنوات ، وهذه القضية التى حُكم فيها على الاستاذ العقاد كاتب الوفد العظيم فى هذا الوقت ، هى قضية مشهورة ، وهى العيب فى الذات الملكية أيام حكم الملك فؤاد .

لما شعر الاستاذ العقاد بأن الملك فؤاد سوف يعتدى على الدستور صاح فى مجلس النواب قائلاً « سوف نُحطِّم أكبر رأس فى هذه البلاد يعتدى على الدستور» فضلاً عن سلسلة من المقالات كتبها عن الرجعية وهو يقصد الملكية» . وقد ترافع عنه فى قضية العيب فى الذات الملكية الأستاذ الكبير مكرم عبيد ، وقد بلغت مرافعته القمة فى المستوى القانونى والأدبى .

وقد ذكر الاستاذ العقاد هذا الحدث فى قصيدته الرائعة التى ألقاها على ضريح الزعيم الخالد سعد زغلول فور خروجه من السجن جاء فيها :

الى الذاهب الباقى ذهاب مجدد	وعند ثرى سعد مثاب ومسجدُ
الى مرجع الأحرار فى الشرق كله	الى قبله فيها الامام موسدُ
لأول من فكَّ الخُطَى من قيودها	أوائل خطوى حين لا أتقيدُ
وكنت جنين السجن تسعة أشهر	وها أنذا فى مساحة الخلد أُولدُ
ففى كل يول يولد المرء ذو الحجى	وفى كل يوم ذو الجهالة يلحدُ

فالأستاذ العقاد لم يسجن فى هذه القضية إلا تسعة أشهر ، فلم

يكن القضاء المصرى العريق يحكم بالسجن تسع سنوات حتى على تهمة العيب فى الذات الملكية .

وبالرغم من السجن وقسوته لم يحد العقاد ، بالرغم من مرضه ، عن موقفه ، ولم يغيِّر من صلابته ومبادئه فيسترسل ...

وما أقعدت لى ظلمة السجن عزمه فما كل ليل حين يغشاك مرقد

وما غيبتنى ظلمة السجن عن سنى إذا انجاب منه فرقد لاح فرقد

عُداتى وصَحبى لا اختلاف عليهمُ سيعهدنى كلٌّ كما كان يَعْهَدُ

وقابله على ماهر باشا وزير الحقانية « العدل» فى ذلك الوقت قال له :

« كيف الحال يا أستاذ » قال ان الحياة هنا فى السجن اكثر حرية منها خارجه» رحم الله هذا العصر عندما كان الرجال رجالاً والزعيم زعيماً .

سعد زغلول فَرَضه الشعب زعيماً ولم يَفْرِض نفسه على الشعب .

فهو الزعيم عندما يكون فى الحكم ، والزعيم الأقوى عندما يكون خارج الحكم ، وهو زعيم الشعب وهو حى ، والمُلهم للشعب بعد رحيله، فهى زعامة حية لا تموت لأنها نبعت من الشعب .

وفى هذا المجال أيضاً ، وهى أحكام القضاء فى قضايا يكون من أطرافها سلطان مصر ، هى القضية التى سجن فيها المنشاوى باشا سنة ١٩٠٢ ، وقد جاء ذكرها فى قصيدة شاعر النيل حافظ ابراهيم وهى القصيدة الشهيرة التى نظمها عن حريق ميت غمر ،التى شب يوم الخميس أول مايو ١٩٠٢ واستمرت حتى ٨ مايو حين أتت على المدينة كلها ، وكنا نَدْرسها ونحفظها ونحن طلبة صغار .

وقد طلب حافظ ابراهيم من الأغنياء والقادرين مساعدة المنكوبين بالمال بعد أن أصبحوا بلا مأوى يقول :

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسي رضيعهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم نارا
أخرجتهم من الديار عراة حذر الموت يطلبون الفرارا

الى أن قال :

أيها الرافلون فى حلل الوش يجرون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جياعا يتوارون ذلة وانكسارا

أيهذا السجين لا يمنع السجن كريماً من أن يزيل العثارا
مُر بألف وإن شئت زدها وأجِرْهُمُ كما أجرت النصارى

وكما جاء فى الجزء الأول من ديوان حافظ ابراهيم ص ٢٥١ فى الشرح .

«يريد بالسجين : المنشاوى باشا الثرى المعروف ، وكان إذاك مسجوناً لارتكابه جريمة تعذيب اللصوص الذين اتهموا بسرقة بعض المواشى من مزرعة سمو الخديوى عباس حلمى الثانى حتى اضطرهم الى الاقرار بما سرقوا ، بتأثير العذاب ، وكان ذلك فى سنة ١٩٠٢ — أما قوله كما أجرت النصارى يشير أن المنشاوى قد أجار كثير من الأوربيين وحماهم من أذى المصريين فى الثورة العرابية وأنزلهم بيته» .

لصوص يسرقون مواشى من أرض خديوى مصر عباس حلمى الذى كان محبوباً من المصريين لمواقفه الوطنية ، حتى أن كثيراً من المصريين فى ذلك الجيل أسموا أبناؤهم على اسمه .

والمنشاوى باشا جار فى أرضه للخديوى ، وفى الريف يعتبر الجار المقيم مسئولاً مسئولية أدبية عن أملاك جاره — فالمنشاوى باشا يكون قد اعتبر حادث السرقة من أرض الخديوى إهانة له واعتداء عليه ، وانتقاصاً لقدره ، خصوصاً أن المعتدَى عليه هو سلطان مصر .

وبالرغم من كل هذه الظروف ، تُقام عليه الدعوى ويُحكم عليه بالسجن ، ويُسجن المنشاوى باشا .

فليس من حقه أن يعتدى على أحد بالضرب حتى ولو كان المسروق هو سلطان مصر - إن قوة القانون وسلطان العدل فوق سلطان مصر - أنها مفخرة ووسام على صدر قضاء مصر العظيم . كم من اعتداءات تمت على أشرف الناس ، وكم من املاك اغتصبت ، وكم من بيوت خُرِّبت ، ولم يتم معاقبة المعتدِى عندما كان القانون فى اجازة .

حاسة السمع

لاحظت ضعف حاسة السمع فى الجيل الجديد – ظاهرة معكوسة – كيف يكون قوة سمعنا نحن الكبار أكثر حِدَّة من صغار السن .

إن الضوضاء التى نعيش فيها أثرت على قوة السمع عند هذا الجيل ، لا شك فى ذلك . فى القبائل البدائية حيث يعيش الانسان فى هدوء تام – يبلغ درجة السمع عن أفراد القبيلة درجة عالية – يمكن للفرد هناك أن يسمع وقع خطوات الحيوان وتحديد نوعه من مسافات بعيدة .

نحن نعيش فى ضوضاء لا نظير لها فى أى مكان فى العالم .

أصوات الميكروفونات ، نفير السيارات ، وارتفاع أصوات الناس بداعٍ وبغير داعٍ .

حتى المستشفيات ، المفروض أن يسود فيها الهدوء التام – نجد الأصوات مرتفعة صاخبة بدون اعتبار لظروف المرضى فى المستشفيات واحتياجهم للراحة التامة والهدوء . لا يوجد مستشفى فى أى مكان فى العالم إلا وفيه الهدوء التام إلا فى مصر – ربما يكون السبب فى ذلك كثرة عد الأطباء والعاملين والمرضى بدرجة غير معقولة وغير مقبولة .

ان ارتفاع الأصوات التى أصبحت سمة هذا العصر ، هى ظاهرة خطيرة تدل على تخلف حضارى ولا بُد من اصلاحها .

أما فى الأفراح ، مهما ارتفع مستواها ، فحدث ولا حرج فأصوات الميكروفونات تعلو لدرجة لا يمكن لأى انسان أن يتحملها – وأصبح من المألوف أن تجد بعض الحاضرين يضعون سدادات فى آذانهم كالتى يستعملها راكبى الطائرات .

ان رفع أصوات المطربين والمطربات مُتعمَّد ، حتى لا تظهر العيوب والنشاذ فى أصواتهم ، فأغلبهم ليس عندهم الفن ولا الموهبة .

أكد لى أحد الزملاء المتخصصيين أن حاسة السمع عند الجيل الجديد

فى تناقص مستمر ، وقد انتشرت سماعات الاذن التى تساعد على السمع حتى فى بعض صغار السن .

لا بُد من اصلاح هذا الخلل بالقوانين الرادعة وبالتوعية وإلا فقد الشعب المصرى ، علاوة على ما فقده ، حاسة السمع .

اليهود فى مصر القديمة

الاسكندرية فى ١٢ / ١١ / ١٩٩٣

السيد الأستاذ مجدى أحمد حسين رئيس تحرير مجلة الشعب

تحية طيبة وبعد ،

لقد تمتعت بقراءة مقالة « اختراق صهيونى فى قلب القاهرة» بقلم دكتور رفعت سيد أحمد فى جريدة الشعب يوم الثلاثاء الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٩٩٣ صـــ٤ فى موضوع اليهود قبل الميلاد الذى كتب عنه الباحث الاسرائيلى «أوناس جرينفيلد» ، وهو بحث حاول فيه هذا الباحث اختلاق يهودى فى مصر القديمة كما تجاهل ، كما ذكر دكتور رفعت « أن مصر قديماً وحديثاً لم تشهد أى اضطهاد لليهود ، وأن مصر ظلت دائماً على هويتها ولم تتأثر بهؤلاء اليهود ولم تؤثر فيها خيانات الكثير منهم فى العمل كجواسيس لدى الفرس» .

وأحب أن أضيف الى ذلك أن اليهود الذين كانوا يعيشون فى مصر أثناء الحكم الفارسى لم يكونوا يؤمنوا ***بالتوحيد*** : فقد كانوا يعيشون فى نسيج المجتمع المصرى ، حتى ***التوحيد*** فقدوه ، متأثرين فيما اعتقد بتعدد الآلهة عند المصريين القدماء ، فكيف يكون لهم أى تأثير فى المجتمع المصرى .

وقد جاء ذكر ذلك فى كتاب « فى رحاب المعبود توت» تأليف الدكتور/ سامى جبره وهو عالم أثرى قدير والناشر « الهيئة العامة المصرية للكتاب» .

فقد جاء فى الصفحة ١١٢ تحت عنوان الرسائل الآرامية :

« وكان أكثر ما كشفنا عنه اثاره لاهتمام المؤرخين ، هى تلك الرسائل الآرامية التى كتبها أفراد الجالية اليهودية الذين كانوا يقيمون فى جزيرة الفيلة الى رفاقهم المقيمين فى منف ، وهى رسائل لم يقدّر لها أن تبلغ أصحابها بسبب الاضطرابات التى وقعت يومئذ فى منف

وغيرها فى منطقة الأشمونين على اثر الغزو الفارسى فى القرن الخامس قبل ميلاد السيد المسيح .

« كانت تلك الرسائل مكتوبة باللغة الآرامية ، وهى اللغة التى كان يبشر بها السيد المسيح عليه السلام ، وكان مطلعها فى الأغلب الأعم بعبارات التبجيل الى « ملكة شيمين» أى ملكة السماء ، وذلك ما يؤكد اتهامات « إرميا» للشعب الاسرائيلى بعدم الاعتراف «بيهوى» «الله» خلال اقامتهم بمصر .

ولن يفوت من يقرأ تلك الرسائل ، انها كانت تتعلق بأعمال البدل والتجارة مع أمور محددة عن حياة اليهود فى المنفى .

كان للكشف عن هذه الرسائل دوّى كبير فى عالم الغرب ، فهى أكدت لهم تنبؤات « إرميا» وقد توالت علينا رسائل التهانى والتشجيع من كثير من نواحى العالم ...»

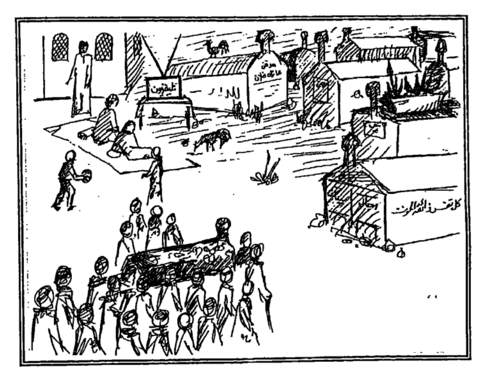
وأعتقد أن هذا الكشف الأثرى دليل واضح على الوضع الضئيل لليهود فى مصر القديمة .

أرجو عرض خطابى هذا على السيد الدكتور رفعت سيد أحمد فهو تأييداً لرأيه فى الوضع ...

وتفضلوا سيادتكم ....

دكتور مصطفى الرفاعى

أحيـــاء فى القبور



ليس كل من مات واستراح بِمَيْتٍ إنما المَيْتُ مَـيِّتُ الأحيـــاء

المعرى

فى مدينة القاهرة كثير من المقابر التى يطلق عليها أسماء أفراد وأماكن ، الامام الشافعى ، الغفير كما توجد مقابر من قديم الزمان من أيام المماليك والفاطميين - وكثير من المصريين يبنون مبانى كبيرة على شكل حجرات واسعة تضم القبور - وبعض هذه المبانى على درجة عالية من الفخامة والأبهة ومفروشة بأثاث جيد كمقابر العائلة الملكية السابقة . واعتقد أن هذه المبالغة فى البناء هو تراث ورثة المصريون عن أجدادهم بناة الأهرام ومقابر وادى الملوك - فقد كان المصرى القديم يبنى للآجلة دون العاجلة أو كما يقول شوقى :

فقصورهم ، كُوخٌ ، وبيت بداوة وقبورهم صرح أشم وجوسق

وعندما حدثت أزمة الاسكان لقلة البناء ولسقوط كثير من المساكن لم يجد كثير من الناس أماكن للايواء فاقاموا بالمساجد والخيام ....

وعندما تفاقمت الأزمة سكن الناس المقابر - نعم اقتحموا المقابر وسكنوها ، ولم يفكر أحد من أصحاب المقابر كما لم تفكر الحكومة فى اخراجهم ، فإذا أخرجتهم فإلى أين ؟

ذهبت لتشييع جنازة صديق عزيز فى القاهرة ، وذهبت مع الأسرة الى المقابر فرأيت عجباً .

المدافن تعج بالسكان ، رجال ، نساء ، أطفال طلبة وطالبات ، فالكل متعوّد ومتعايش مع ذلك الحَدَثْ المتكرر ولا يشغلهم هذا الحدث عن حياتهم اليومية ، الأم تطهى الطعام والأطفال يرتعون ويلعبون والأولاد والبنات يذاكرون ، والشبان يتزوجون وتُقام الأفراح ، والحياة تسير .

حياة غريبة فى مدينة الموتى ، لا رهبة للمكان ولا احترام لقدسية المكان ولا لأجساد ورفات الموتى . أصبح فى المقابر كاستات وتلفزيونات ومقاهى ومحلات تجارية - وخلوات لمن يترك المدفن لغيره وكأنها أصبحت حقاً له ! ووصل اليها مأمورى الضرائب لأخذ حق الدولة من حصيلة المقابر .

ولكن نظرات الاطفال كانت زائغة وكأن ليس بها حياة - نظرات من يشعر بالخجل والحرج . تربى جيل من الصغار فى المقابر وخرج منها بكل ما يحمله الانسان من قهر ومهانة وحقد وعُقدٌ نفسية لا يمكن حلّها .

بلغ سكان المقابر حوالى مليونين - اثنين مليون انسان فى وضع مخل لا نظير له فى أى مكان فى العالم .

هل هذا هو مجتمع الكفاية والعدل ؟

إن هذا البلاء هو الحصاد الطبيعى لسياسة الاسكان التى تبنتها

الدولة وأصّرت عليها . انتابنى شعور بالألم والاحباط وهربت بفكرى الى الماضى البعيد متذكراً قول أبو العلاء المعرى وهو يطلب من الأحياء أن يترفقوا بالموتى :

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إنّى أخافُ عليكمو أن تلتقوا

كما يطلب منهم احترام أجساد ورفات الأجداد .

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهد هوان الآباء والأجداد
سر إن استطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد

أين نحن من الاحترام الواجب لرفات الآباء والأجداد – إن القهر الذى تعرض له هؤلاء المواطنين جعلهم ينسوا أو يتناسوا احترام المصرى العميق لرفات الموتى .

ويستطرد المعرى وهو يتعجب لما تحويه القبور من المتناقضات .

رُبَّ لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الاضداد

لم يخطر ببال فيلسوف المعره أن التزاحم فى القبور سيكون من نصيب الأحياء أيضاً . ولو كان المعرى يعيش بيننا الآن ربما كان سيقول :-

رُبَّ لحد قد صار مأوى لحىّ ضاحكٍ من تزاحم الاضدادِ

ويكون هذا المعنى أكثر عمقاً إذ أن الحياة هو الضد الطبيعى للموت .

اصرار القتيل

استدعانى الطبيب المقيم « الدكتور محمد السيد» استدعاءاً عاجلاً لمناظرة مريض أصيب فى بطنه بطلقات نارية – وأبلغنى أن حالة المريض مستقرة بالرغم من جسامة الاصابة .

والدكتور «محمد السيد» كان على درجة عالية من الكفاءة وقد أصبح فيما بعد رئيساً لقسم الجراحة بكلية طب المنصورة .

كان المصاب فلاحًا فى منتصف العمر ، وكان مصاباً بطلقات نارية متعددة من بندقية خرطوش من مسافة قريبة – وبجدار البطن وجدت عشرات الفتحات للرش . وبالرغم من ذلك كانت حالة المريض جيدة، ولم يصب بصدمة عصبية ، وكان النبض وضغط الدم فى حالة طبيعية تقريباً ! ..

وكان ذهنه صافياً وتفكيره سليماً – ولخطورة حالته سألته ، إذا كان يعرف من الذى أطلق عليه النار ؟ فلم يجب ، وأصَر على الصمت .... ثم قال : هل ترى أنى سأموت ؟.

فأجبته : إن الأعمار بيد الله فلا تيأس من رحمته .

حضر ضابط البوليس ، وحاول أن يعلم من المصاب اسم الجانى ، فلم يستجب له ولم يبلغه عن اسمه .. وكان الظاهر لنا أن المصاب يعرف شخصية الجانى ولا يريد أن يذكر اسمه .

حضرت كل ممرضات المستشفى للمساعدة كما كان يحدث فى مستشفيات الأقاليم ، وأجريت الجراحة ففوجئت بوجود مئات الثقوب فى الأمعاء نتيجة لاختراق الرش لها ، وهذه الثقوب تحتاج الى ساعات طويلة لرتقها ولا يمكن لأحد أن يقوم بمثل هذا الأداء ...

ثم فوجئنا بنزيف حاد ينبعث من أجزاء متعددة من داخل البطن

ولم نتمكن من ايقافه – فمات المريض ! ... ولم نستطع أن نعمل شيئاً لانقاذه ...

أصابنا الاحباط الذى يحدث لنا فى مثل هذه المواقف ، كما أصاب ضابط البوليس الذى لم يستطع أن يعرف اسم الجانى .

علمت بعد ذلك أن المصاب كان يريد أن ينتقم شخصياً من الجانى خارج قوانين الدولة ، ولكن القدر لم يمهله .

قسوة الانسان

استدعانى مدير المستشفى لأمر عاجل ، وكنت اعمل فى إحدى المستشفيات المركزية الصغيرة ، وفى هذه المستشفيات يكلف الطبيب بكثير من المسؤوليات خارج نطاق تخصصه . طلب منى المدير أن أوقع الكشف الظاهرى على جثة طفلة فى المشرحة ، كانت تعمل خادمة عند إحدى الأسر فى البلدة ، وماتت فى المنزل واشتبه مفتش الصحة فى الوفاة فلم يصرّح بالدفن ...

كانت الجثة لطفلة تبلغ من العمر حوالى عشر سنوات ، وكانت ملابسها بالية ممزقة ، وكانت نحيفة وعظامها بارزة وظاهر عليها علامات سوء التغذية ...

ووجدت أن بعض أطراف أصابعها مقطعة بآلة حادة « مقص مثلا» وجروحها متقيحة ووجدت كسر مضاعف متقيح بالساعد الأيمن لم يلتئم وقد مر عليه أكثر من شهر ولا يوجد أى آثار لعلاج هذا الكسر .

أما ظهر الطفلة فكان به آثار حروق متوازية وكأنها حدثت بملامسة الجلد بأسياخ من الحديد الساخن .

وكان شعر رأسها حليقاً وعلى فروة الرأس حروق متقيحة تشابه الحروق التى بالظهر .

كيف تحملت الطفلة كل هذا التعذيب ، وكيف تحمل جسمها كل هذا العذاب . وعند خروجى من المشرحة وجدت جمهرة من الناس ، فهمت أنهم من أسرة السيدة التى تعمل عندها هذه الطفلة ، فتجاهلتهم ورفضت الحديث معهم .

استدعى مدير المستشفى الطبيب الشرعى الذى قام بتشريح الجثة ، وكتب أن سبب الوفاة هو تسمم دموى من الجروح والحروق المتعددة المتقيحة بجسم الطفلة ...

وقد ظهر من تحريات البوليس أن السيدة التى تعمل عندها هذه

الطفلة كانت تضربها وتعذبها باستمرار ، ولكن لم يتصور الجيران أن العذاب كان قد وصل الى هذا الحد من البشاعة .

كان مأمور البندر رجلاً فاضلاً ، فتبنى هذه القضية التى هزّت ضمير سكان البلدة ، وجاء فى تحرياته أن هذه السيدة دأبت على تعذيب الخدم ، اغلقت مرة الشرفة على خادمة صغيرة وجردتها من ثيابها فى ليلة من ليالى الشتاء القارصة البرودة - واضطرت الى ادخالها الى المنزل من ثورة الجيران على السيدة عندما سمعوا بكاء الفتاة المستمر ...

العجيب أن هذه السيدة لها أطفال فى سن هذه الطفلة - ولكنها فقدت كل معانى الانسانية ... أما زوجها فكان ضعيف الشخصية ، لا حول له ولا قوة .

يقول علماء النفس أن مثل هذه السيدة مريضة بمرض الايذاء Sadism وهى تتلذذ وتنتشى بايذاء الغير ...

وقد رأيت وسمعت عن بعض الأشخاص الذين كانوا يعذبون المقبوض عليهم فى المعتقلات بوسائل لم تعرفها القرون الوسطى ، ولا شك أن مثل هؤلاء المعتدون من نوعية هذه السيدة .

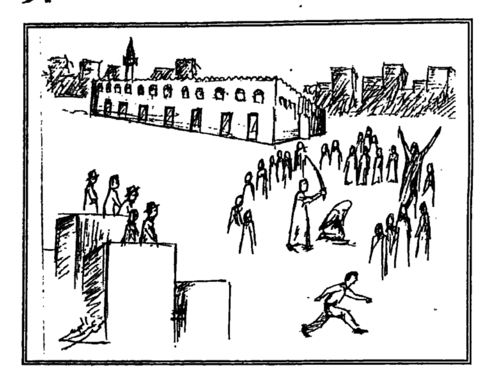
كانت هذه السيدة ضخمة الجسم ، ولما قُدمت للتحقيق ، كانت فى منتهى العنف ، وأنكرت كل شئ ولم يبد عليها أى تردد أو ندم أو رهبة - ولكن حكم عليها بالسجن لمدة طويلة ..

أما والد الطفلة ، فكان فلاح بسيط متزوج من زوجة جديدة ، لأن والدة الطفلة كانت قد توفيت ، ولم ير ابنته منذ أكثر من سنة ...

لقد مرّت علىّ حوادث كثيرة ولكنى لم أر ولم أسمع فى حياتى قسوة مثل قسوة هذه السيدة .

«ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون»

صدق الله العظيم



أديت صلاة الجمعة مع الزميل الدكتور مختار عمر فى مسجد الطائف .... الامام خريج الأزهر والخطبة بليغة .

بعد الصلاة لاحظت زحام فى الميدان ، وكان الناس يتدافعون ليتجمعوا حول الجهة الخلفية من المسجد ورأيت بعض الأجانب يرتقون مكاناً عالياً !

سينفذ حكم الاعدام فى أحد القتلة وستقطع رقبته بالسيف ، والجميع يتسابقون لرؤية تنفيذ الحكم ، جريت بسرعة لكى أبتعد عن المكان ، فلا أستطيع أن أرى ذلك ، وقبل ابتعادى سمعت صرخة امرأة تشق عنان السماء ، وتعلوا على كل هذا الضجيج ، انها من أسرة القاتل أمه ، أخته ، أو زوجته ؟

صَرَخَتْ عندما طارت رقبته فى الهواء .

لماذا لم ترسل بعيداً حتى لا ترى هذا المشهد ؟

زدت فى سرعتى لكى أبتعد اكثر واكثر ...

عادت بى الذاكرة الى سنوات بعيدة، عندما أُحضرت جريحة الى المستشفى التى كنت أعمل بها ، وأدخلها الطبيب المقيم الى حجرة العمليات فوراً ... كانت حاملاً فى الشهر التاسع ، وكانت تنزف بغزارة من رقبتها ... تجمع الأطباء والممرضات للمساعدة ، كما كان يحدث دائماً فى مستشفيات الأقاليم الصغيرة ...

كانت المريضة مذبوحة من خلف الرقبة مع امتداد الجرح الى الجهة اليمنى .... نقلنا الدم وبدأنا العملية فوراً ، وأمكننى بعون الله من ايقاف النزيف واصلاح الأنسجة ونجت المريضة لسرعة التدخل الجراحى ولعدم وجود قطع بالأوعية الدموية الرئيسية ولا بالقصبة الهوائية .

مرت بى كل هذه الذكريات وأنا ألهث من الجرى ، كيف أرى قطع الرقبة ، والسلاح الذى تعودت أن أحمله هو أداة لاصلاح قطع الرقبة ، وقطع غير الرقبة . تذكرت قول شوقى عندما خاطب جراح مصر العظيم على ابراهيم :

سلاحك من أدوات الحياة ... وكل سلاح أداةُ العَطب

كأنك للموت موت أتيح ... فلم ير وجهك إلا هَرَبْ

شفيت المريضة بعد عدة أيام ، وحضر زوجها الذى حاول ذبحها وتصالحا ، وصفحت عنه وعاد الوئام الى الأسرة ... ولم تعترف فى محضر البوليس أنه هو الذى حاول ذبحها كيف يصل الزوج الى هذه

الدرجـة من القسـوة ! ، وكـيف تصل الـزوجة الـى هذه الدرجـة من التسامح – إن الزوجة المصرية لا نظير لها بين نساء العالم ...

نعود الى قطع رقبة القاتل ، فقد قتل نفساً بغير نفس ، فكأنه قد قتل الناس جميعاً ولا بديل عن القصاص .

" ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون"

صدق الله العظيم

كلية طب طنطا

انشئت كلية طب طنطا سنة ١٩٦٣ - وكانت تتبع جامعة الاسكندرية . بدأت الدراسة فى السنة الأولى سنة ١٩٦٤ ولم يكن هناك عدد كافٍ من أعضاء هيئة التدريس فى قسم التشريح ، كما لم يكن هناك طلبة قدامى لكى يساعدوا المستجدين كما يحدث دائماً .

أُنتدب استاذنا الدكتور يوسف الأعسر لاعطاء المحاضرات ثلاثة أيام فى الاسبوع وكان مقيماً بالقاهرة بعد انتهاء خدمته بجامعة الاسكندرية .

كما أُنتدب الاستاذ الدكتور ادوارد مينا أستاذ التشريح بطب الاسكندرية ... وكان بالقسم معيداً واحداً ... لم يكن ذلك كافياً ، فقام عميد الكلية الاستاذ الدكتور لطفى بيومى بانتداب عدد من الأطباء للمساعدة فى تدريس التشريح فانتدبنى لذلك كما انتدب الزملاء دكتور عمر البسيونى ودكتور محمد غزالى ودكتور عبد الحى مشهور ودكتور حسن مصطفى ...

سعدت جداً بهذا العمل ، فأنا أعتبر علم التشريح هو أساس علم الجراحة ولم أقتنع مطلقاً بالاقلال من حجم دراسته ، وكان أستاذنا الدكتور يوسف الأعسر يقول « إن أية معلومة ولو كانت بسيطة فى علم التشريح سوف يحتاج لها الجراح يوماً ما أثناء اجراء جراحة» .

وقد تأكدت لى هذه الحقيقة خلال سنوات العمل الطويلة ، إذ كيف يسير انسان فى طرق ملتوية بدون أن يعرف دقائقها ! .

- كانت هذه هى الدفعة الأولى ، وكان الطلبة يشعرون بعدم توافر الامكانات التى توجد فى الجامعات العريقة ، فضاعفوا من جهدهم كما ضاعفنا نحن من جهدنا حتى بلغ المستوى العلمى للطلبة مستوى مشرفاً .

من جهتى قمت أيضاً بتدريس علم الأجنة "Embryology" ، وكنت أعطى محاضرة أسبوعياً بعد الظهر ، وقلّما كان يتخلف احد الطلبة عن الحضور .

وكنت أصنع نماذج ملونة من الورق المقوى للمساعدة على شرح التطور الجنينى . مرّت سنوات بعد هذه الحقبة وتقابلت مع الاستاذ الدكتور نور الدين أستاذ التشريح فى جامعة الأزهر ، وكنا نمتحن طلبة التشريح سوياً فى طب الاسكندرية فأخبرنى بما أثلج صدرى وقال : « إن الدفعة الأولى فى طب طنطا كانت أحسن دفعة فى التشريح فى الجامعات المصرية وقد سجلنا ذلك ، نحن الممتحنون ، فى سجلات الكلية فى حينه » .

لم تنقطع صلتى بكلية طب طنطا . وخصوصاً أن رئيس قسم المسالك البولية زميل عزيز « الأستاذ الدكتور فاروق حمود» فانتدبنى للتدريس ولامتحانات الدبلوم والماچستير والدكتوراه سنوات عديدة .

وجاء بعده الزميل الدكتور جابر قنديل ، فداوم على انتدابى للعمل فى القسم . ومرت الأيام وأصبح طلبة أول دفعة أساتذة فى الكلية .

أصبح الأستاذ الدكتور أسامة أبو فرحة رئيساً لقسم جراحة المسالك البولية والاستاذ الدكتور محمود عمران أيضاً أستاذ بقسم جراحة المسالك البولية - وكان كلاهما قريباً منى عندما كانا طلبة فى قسم التشريح .

ولقد شرّفتنى كلية طب طنطا ثلاث مرات .

أما المرة الأولى ففى أثناء حضورى مؤتمر الكلية سنة ١٩٩٣ فوجئت بتكريمى أمام الحاضرين واعطائى هدية تذكارية ، وقال الدكتور المحروقى « نقدم هذه الهدية كتاب الله» للدكتور مصطفى الرفاعى ، الذى كان ولا يزال يعطى لهذه الكلية - فنحن لانزال نستعين به لاجراء بعض العمليات الصعبة وهو ملتزم بعمله معنا » ...

وقال الدكتور باظة أستاذ الجراحة عند تقديمى لالقاء المحاضرة

الافتتاحية للمؤتمر وكانت عن « تاريخ المسالك البولية فى العصر الذهبى للطب العربى القديم » ان الاستاذ الدكتور مصطفى الرفاعى. هو مرجع فى هذا المجال ، وهذه الأبحاث تعتبر تسجيلاً علمياً دقيقاً للحضارة الطبية العربية .

– أما المرة الثانية فقد أخبرنى الاستاذ الدكتور / شريف لطفى بيومى أستاذ الباثولوچيا بطب طنطا ، بأنه رأى طلبة الكلية يتبادلون مذكرات الدكتور/ مصطفى الرفاعى فى علم الأجنة – وكان بعض الطلبة قد قاموا بطبع محاضراتى التى ألقيتها سنة ١٩٦٤ ولا زالت هذه المحاضرات تُتَداول وقد مر على القائها ثلاثون عاماً .

– أما المرة الثالثة ففى أثناء مناقشة رسالة دكتوراه فى كلية طب طنطا موضوعها « دراسة اصابات وضيق مجرى البول الخلفى والسلس البولى وعلاجها جراحياً ، وقد كنت قد قمت بجهد كبير فى انجازها .

قال الاستاذ الدكتور محمد الغراب رئيس لجنة الممتحنين ، أن العمل الذى قام به الدكتور/ مصطفى الرفاعى لا يمكن أن يقوم به غيره ، وهو عمل علمى أساسى كبير بجميع المقاييس .

كما قال الاستاذ الدكتور فاروق حمود ان أية حالة مستعصية تقابلنا فى هذا المجال نرسلها الى الدكتور/ مصطفى الرفاعى الذى لا يتوانى فى اجراء الجراحة اللازمة لها بدون مقابل مادي .

كما علق الاستاذ الدكتور محمود عمران قائلاً : ان هذه الجراحات هى انجاز كبير فى هذا المجال لا يمكن استيعابه بسهولة .

ان الوفاء فضيلة لو حملها الانسان رفعته الى أعلا مراتب الانسانية والأصالة ، ولقد حملت كلية طب طنطا هذه الفضيلة .

إن السعادة التى يشعر بها المعلم وقد رأى نجاح رسالته ، لا تعادلها سعادة فى الوجود .

مستشفيات مصر

ان حالة اغلب المستشفيات فى مصر لا ترقى الى المستوى اللائق . لا أنكر أن هناك بعض المستشفيات على مستوى رفيع من الكفاءة والتنظيم ولكنها قلة على أى حال ...

بعيداً عن الامكانات المادية التى تقف عائقاً أمام التقدم ، سأطرق موضوعاً آخر وهو عدم الالتزام وعدم التمسك بالسلوك الحضارى - الذى لا يكلف اصلاحه شيئاً وسأسرد بعضاً من هذه المخالفات .

- أصوات الممرضات والعاملين عالية جداً وكأنهم فى شجار مستمر .

فى كل أنحاء العالم تجد الهدوء التام داخل المستشفيات ، حرصاً على راحة المرضى ، فهم لا يتكلمون إلا همساً - إلا فى مصر ، والأدهى من ذلك وجود ميكروفونات مزعجة لا تكف عن الصياح لاستدعاء أحد العاملين .

- أما موضوع التسجيل الطبى للعمليات فهو مضطرب اضطراباً تاماً - فالمعلومات المسجلة مبتورة والخط غير واضح .... إذا كان هناك تسجيل أصلاً ...

إن أجدادنا المصريون القدماء هم الذين وضعوا أسس التسجيل ، فسجلوا تاريخهم حتى على الأحجار ، فحفظوا لنا تراثاً خالداً .

يحفرون على الحجر ، ونحن لا نكلف خاطرنا بالكتابة على الورق مأساة .

الالتزام بالمواعيد :

لا يوجد التزام من الأطباء بالمواعيد - ربما يحضرون صباحاً للتوقيع ثم ينصرفون بعد ذلك والمدير يتغاضى عن ذلك . فأعداد الأطباء كثيرة جداً أكثر بكثير مما يحتاجه العمل بالمستشفى ، وإذا مكثوا فى المستشفى فلا يوجد مكان لهم للجلوس .

وهذا نتيجة لاضطراب التخطيط لسنوات طويلة - كيف تُخرِّج الدولة مثل هذا العدد من الأطباء بدون أن تُقيم العدد الكافى من المستشفيات حتى تستوعبهم ، بدلاً من تكدسهم بلا عمل .

اما حجرات العمليات فالنظام فيها مضطرب والالتزام بالقوانين الطبية منعدم ، واصلاح ذلك لا يكلف شيئاً فغطاءات الرأس والوجه متوفرة وكذلك أحذية العمليات ، ولا يوجد مبرر لعدم استعمالها - ولا داعى للخوض فى هذا الموضوع أكثر من ذلك .

صيانة الآلات الدقيقة :

إن الآلة هى وسيلة الانسان لإتقان العمل والشعوب الراقية تحترم الآلة وتصونها بل وتعشقها ، وإذا أهملت صيانتها أصابها الصدأ وأصبحت عاجزة ولا يمكن تحريك مفاصلها - وبعض هذه الآلات مرتفعة الثمن جداً ، ولا يمكن تعويضها ، للأسف فى معظم المستشفيات لا تصان هذه الآلات وتتوقف عن العمل ، مأساة أخرى .

وإذا ذهبنا الى المملكة العربية السعودية وزرنا إحدى المستشفيات التى لا يعمل بها إلا المصريون ، من مدير وأطباء وهيئة تمريض وعاملين ، تجد الجميع ملتزمون التزاماً تاماً بكل التعليمات ، لا ارتفاع فى الأصوات ، التزام تام فى مواعيد العمل ، نظام صارم فى حجرات العمليات ، ودقة تامة فى التسجيل الطبى وصيانة الآلات .... هل هناك تفسير لهذه الظاهرة إلا الثواب والعقاب .

ان العمل فى حجرات العمليات شاق مجهد ، وأرى أن تُعْطى مكافآت مالية مجزية لهيئة التمريض والعاملين بحجرة العمليات .

أرى أن يتعرض أحد المُصلحين لاصلاح العمل بالمستشفيات وخصوصاً حجرات العمليات وفرض نظام صارم لا تهاون فيه .

وأرجو ألا يؤاخذنى أحد على ما كتبته فأنا لا أبغى سوى الاصلاح ولا أقول إلا ما حَسبته صواباً .

مؤتمر الجراحين العرب دمشق ١٩٩٤

حالفنى الحظ بحضور مؤتمر دمشق ١٩٩٤ وكنت قد حضرت مؤتمر الجراحين الأطباء العرب بدمشق عام ١٩٥٩ ، وجدت تقدماً كبيراً فى كل شئ ، دمشق امتدت مسافات طويلة وأنشئت فيها أحياء جديدة ، والشوارع والمبانى على أعلى درجة من الرقى والنظام .

أما بلودان وهى مصيف جميل على الجبل ، فهى بشوارعها ومبانيها لا تقل عن أجمل بقاع سويسرا وقد رأينا ترحيباً حاراً من الزملاء السوريين ، وكان أهالى دمشق يحيوننا فى الطريق إذا أحسوا بلهجتنا المصرية .

حضر المؤتمر زملاء من الوطن العربى ، وكان القاء المحاضرات باللغة الانجليزية التى لا يجيدها الزملاء من سوريا ، فهم يدرسون الطب باللغة العربية ، كما أن هناك كثير من الزملاء تعلموا فى فرنسا أو ألمانيا .... أما المغرب العربى ، فلا يجيدوا الانجليزية كالفرنسية ... حتى الزملاء السوريون كانوا يقدمون الشرائح باللغة الانجليزية ويتكلمون باللغة العربية ... أعطيت محاضرتى وشرائحى باللغة العربية الفصحى وكان موضوعها « تمزق مجرى البول (الاحليل) فى الذكور نتيجة لكسر الحوض العظمى » - وقلت أنه من غير المعقول أن يكون المحاضر والمستمع عربياً ونتكلم بغير العربية ...

واستشهدت بقول أمير الشعراء أحمد شوقى« وما العربية إلا وطن » وشاعر لبنان بشارة الخورى « إن العروبة فيما بيننا ذمم» .

وقد لاقت المحاضرة استحساناً وشعرت أنها استوعبت جيداً من جميع الزملاء العرب .

وفى نهاية المحاضرة ذكرت قول أحمد شوقى :

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد ... بيان غير مختلف ونطق

جزاكم ذو الجلال بنى دمشق ... وعز الشرق أوله دمشق

وقلت أتمنى أن يكون هذا الترابط بيننا ، هو بداية الطريق لوحدة الوطن العربى الكبير . كان مستوى المقالات جيداً وخصوصاً من الزملاء المهاجرين الى أوربا والولايات المتحدة .

أنا لا أقرّ أن يُعلِّم الطب الآن باللغة العربية ، فربما يحدث ذلك بعد سنوات . فالكتب والمراجع والمجلات والدوريات لا يمكن ترجمتها بسرعة صدورها ، ولا بد من وجود قاعدة علمية كبيرة فى الوطن العربى حتى يُحقق ذلك .

ولكن لنبدأ فى الانتقال حثيثاً الى لغتنا كما حدث في وضع ملخص للرسائل والأبحاث باللغة العربية ، والتوسع فى ذلك خطوة خطوة – كما يجب أن تُوحّد المصطلحات الطبية باللغة العربية فى أنحاء الوطن العربى .

وقد حدث مثل ذلك فى تاريخ أوروبا ، فقد أخذوا الطب العربى وتعلموه باللغة العربية ، ثم ترجموا كتب ابن سينا والرازى والزهراوى وغيرهم الى اللاتينية والايطالية ... لقد ظل كتاب القانون فى الطب لابن سينا يُدرّس فى أوروبا من القرن العاشر الى القرن السادس عشر .

ثم تطوروا واستغنوا عن اللغة العربية ... وأنكروا وتجاهلوا ابتكارات الأطباء العرب ، ولم يذكروها فى مراجعهم وهذا خطأ جسيم من الناحية العلمية البحتة ، فضلاً عن الناحية الأخلاقية .

ولكن لاتزال هناك الفاظ عربية فى الطب الأوربى كالكُحُل والقرنية ، وهذه هى مسئوليتنا لتصحيح تاريخ الطب واعادة كتابته .

هل سيأتى اليوم الذى تتم فيه الوحدة العربية الكبرى – فاللغة تربط اللسان العربى من الخليج الى المحيط وهذا ما تفتقده أوربا .

كما أن الوطن العربى ، غنى بأبنائه ، غنى بموارده ، إن أعظم ما فيه هو الانسان ، إذا أُحسن توجيهه ، فله جذور عميقة من الحضارة ، ايمان بالرسالات السماوية ، فقد أنزلها الله فى أرضه لهداية البشرية .

التزام تام بالقيم ، والعرف والتقاليد ، البُعد عن الانحرافات الأخلاقية ، احترام تام للأسرة - فى الولايات المتحدة الأمريكية ، لا يمكن لأى انسان أن يسير فى الشارع مساء ، فلا يأمن على حياته ولا على ما يمتلكه - بلغت الجريمة عام ١٩٩٤ - ٤٤ مليون جريمة فى عام واحد ، هل هذه هى قمة الحضارة .

أما الانحرافات الأخلاقية فى داخل وخارج الأسرة الاميركية فلا داعى لخوض فيها ، فهى حقيقة معروضة على الملأ - وسينهدم هذا الكيان لا محالة ، فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ....

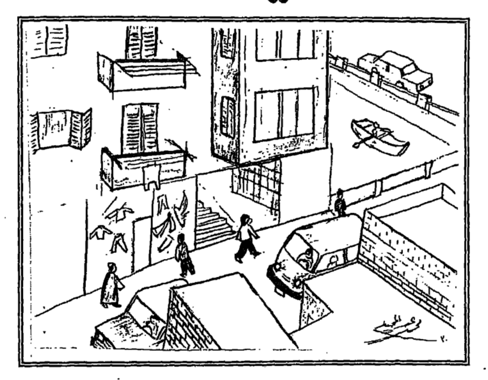
كما أن الوطن العربى غنى بموارده ، البترول فى الجزيرة العربية والعراق وليبيا ومصر ، الأرض الخصبة الصالحة للزراعة فى العراق والسودان - فى السودان (٢٠٠ مليون) فدان صالحة للزراعة ، الفلاح الذى يزرع ولا يكل ولا يمل من مصر . لو زرع فى السودان عشرة ملايين فدان قمح لحدث اكتفاء ذاتى فى الوطن العربى ولأغرقت الأسواق العالمية بالقمح العربى ، ولتغيرت الاستراتيچية السياسية .

الكوادر العلمية داخل الوطن العربى وخارجه ، فى المهجر ،يوجد مئات من العلماء العرب الذين بلغوا القمة فى العلم والمعرفة - السياحة فى مصر ولبنان وسوريا والمغرب العربى ، أليس هذا كافياً لبعث دولة عظمى من الخليج الى المحيط .

فلا بقاء ولا وزن للكيانات الصغيرة .

هل سنرى هذا اليوم - إن الله قادر على كل شئ .

المنصورة سنة ١٩٩٥



ذهبت الى المنصورة بناء على دعوة الزميل العزيز ، والأديب الشاعر الأستاذ عبد الحميد الجمل المحامى - وهو زميل الطفولة والصبا ، وسعدت غاية السعادة بلقائه .

ومهما رأى الانسان فى حياته ، ومهما مرت به من ذكريات جميلة، فلا شئ يفوق ذكريات الصبا ، كما قال الشاعر :

وقد تعوضت على كل بِمُشبهه فما وجدت لأيام الصبا عوضا

ومن جميل الصدف أن يكون فى لقائى أيضاً . الزميل الأستاذ الدكتور بدوى حتحوت رئيس قسم جراحة المسالك البولية بطب بنها ، والدكتور خالد ابن الاستاذ عبد الحميد الجمل ، وهو أيضاً معيد فى قسم جراحة المسالك البولية بطب بنها وشقيقه الدكتور طارق الجمل .

أخذنى الزميل عبد الحميد فى جولة فى مدينة المنصورة - لقد

تغيَّر كل شئ ، وكان لا بد أن تتغير الدنيا ، فقد مرّ أكثر من خمسين عاماً .

فى حى توريبيل لم أجد البحر الصغير ، وقد كان فرعاً كبيراً من نهر النيل ، فقد رُدم من سنَوات طويلة .

تعرفت على بعض المبانى القديمة التى كان يسكنها زملاء الصبا ، كما تعرفت على المدرسة الايطالية والنادى اليونانى - أما مبنى تفتيش الرى ، ومبنى تفتيش مشروعات الرى ، فقد اختفيا وراء مبانى كثيرة بنيت فى حدائقهما ، فضاعت الحدائق ...

ثم ذهبنا الى المدرسة الثانوية ، لم يتغير شارعها كثيراً ، والمنازل لاتزال حالتها جيدة ، فهى من المنازل القديمة الجيدة البناء .

دخلنا المدرسة ، شعرت برهبة وخشوع ، وكأنى دخلت مكاناً مقدساً ...

كان اليوم يوم الجمعة وكان السكون شاملاً .

عادت به الذاكرة الى سنة ١٩٣٥ ، فعشت فى رحابها بكل جوارحى .

لم أعد أسمع إلا جرس المدرسة ، وهتافات الطلبة ، وطلقات البنادق .

- الدستور أو الثورة .

- الاستقلال التام أو الموت الزؤام .

- تسقط انجلترا .

- لا ، لن يدخل البوليس المدرسة أبداً ...

ولم أعد أرى إلا الطالب توفيق السيد يقود الجموع ، الجرحى تتساقط والدماء تنزف ، والنار تشتعل ، ولكن لم تذهب دماء الشهداء سُدى ، فقد نجحت الثورة وعاد الدستور ...

ثم انطلقت بى الذاكرة الى يناير ١٩٥٢ ، عندما هاجمت القوات البريطانية مبنى محافظة الاسماعيلية ، فتصدى لها البوليس المصرى

ولم يستسلم ، نعم حارب بشرف وشجاعة يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ ، وأصبح هذا اليوم هو عيد الشرطة المصرية .

وكان على رأس قوة البوليس المصرى الضابط الشجاع اليوزباشى مصطفى رفعت « اللواء فيما بعد» ، وهو زميل المنصورة الثانوية – فقد تصرف مصطفى رفعت سنة ١٩٥٢ ، كما تصرف هو واخوانه من الطلبة فى المنصورة الثانوية سنة ١٩٣٥ .

وعاودنى الماضى – هنا لعبنا وتعلمنا وتثقفنا – هنا أخذنا العلم عن أساتذة أفاضل أكفاء – علّموا أجيالاً ملأت مصر علماً وحضارة .

أذكر من أساتذتى الاستاذ مصطفى حسنين مدرس الرياضة ، والاستاذ كفافى مدرس اللغة العربية قمتان شامختان من الثقافة والمعرفة .

هنا أيضاً تعلمنا الوطنية والفداء والانتماء لأرض مصر ولأرض الوطن العربى .

من هنا تخرّج الضابطان الشهيدان بيومى على شافعى ، ومحسن اسماعيل حمد ، اللذان رويا بدمائهما أرض فلسطين ، وكانا قمة فى الشجاعة والتضحية .

أيقظنى الاستاذ عبد الحميد من الماضى ، وقادنى الى داخل المدرسة ليرينى النصب التذكارى لشهداء المدرسة سنة ١٩٣٥ .

– لا يا أستاذ عبد الحميد ، إن النصب كان أمام المبنى الخارجى ، ليس هذا نصب شهداء سنة ١٩٣٥ . ولما تمعنت فى النصب ، وجدت أن هذا النصب هو لشهداء المدرسة سنة ١٩٤٦ ، ولم أكن قد رأيته من قبل، شهداء ثورة الطلبة ضد معاهدة صدقى – بيفن– التى رفضها الشعب المصرى وأسقطتها ثورة الطلبة ...

هى هى المنصورة حفظها الله ، قمة فى الوطنية والفداء ، اليس[illegible] هى التى أنقذت مصر وقضت على جيش لويس التاسع ، وأسرته وسجنته فى دار ابن لقمان ، ولا زالت الدار على عهدها [illegible]

الشاعر ... وقرأت على النصب من بين أسماء الشهداء اسم الشهيد فتحى عثمان، شقيق الزميل الدكتور عبد المنعم عثمان زميلنا فى كلية طب الاسكندرية ، وقد كان ولا يزال مثلاً رائداً فى الوطنية والتضحية. بحثت عن النصب التذكارى لشهداء سنة ١٩٣٥ فلم أجده.

حزنت لذلك حزناً شديداً – أين يوجد هذا النصب ؟

هل ضاعت إلى الأبد ذكرى الزميلين شطا محمد شطا وعلى حسين حسن شهيدا ثورة ١٩٣٥ ، لا بُد من ايجاد وسيلة لاعادته الى مكانه ...

وذهبنا الى حى المدرسة الثانوية فرأيت المنزل الذى كنا نعيش فيه سنة ١٩٣٩ ، لايزال المنزل شامخاً بلونه الأبيض وبنيته الراسخة ، ولكنه أصبح محاصراً وسط مبانى كثيرة لا ترقى اليه .... يا ليت أيامه تعود ، فقد قضينا فيه أجمل أيام عمرنا .

كنا أسرة سعيدة متماسكة ... توفى الوالد ونحن لانزال طلبة فى الجامعة .

ثم توفى الشقيق الصغير بأزمة قلبية وهو يلعب التنس ، وهو فى كامل صحته وفى ريعان شبابه وكان ملئ السمع والبصر .

لقد فرّقتنا الأيام قبل الأوان ، يا لقسوة الزمن ...

صدق المتنبى وهو يقول :

أبنى أبينا نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينعق

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهموا الدنيا ولم يتفرقوا

نعم يا أبا الطيب – وما من معشر ، جمعتهموا الدنيا ولم يتفرقوا .

طلبت من الاستاذ عبد الحميد أن يرينى مدرسة روضة الأطفال التى تزاملنا فيها والتى تقع على نهر النيل ، فأبلغنى انها هُدمت وبنيت مكانها عمارات شاهقة .

– لقد هدموا أجمل ذكرى فى حياتنا يا عبد الحميد ....

ثم عرجت الى نهر النيل فهالنى ما رأيت ..

تقلص النهر فأصبح مجراه ضيقاً ضحلاً ، وبنيت مئات المنازل فى مجراه القديم

وأصبحت مياهه راكدة أسنة .

تذكرت ونحن أطفال عندما كنا نشدو بشعر شوقى :

النيل العـــذب هو الكوثر   والجنة شــاطئــه الأخـضـــر
ريان الصــفــحــة والمنظر   مــا أبهى الخلد ومــا أنضـــر
جـــارويرى ليس بجـــار   لأناة فـــيـــــه ووقـــار
ينصب كـــتل منهـــار   ويضّج فـتـحـسـبـه يزأر
حبشى اللون كجيرته   من منبعــه وبحـيــرته
صبغ الشطين بسمـرته   لونا كـالمسك وكـالعنبـر

ما عاد النيل عذباً ، ولا أصبحت مياهه سمراء ولا جارية ، ولا أصبح له صوت ولا ضجيج .

المنهل فـــقـــد عـــذوبتـــه   والشـاطئ ضـاعت خضـرته
والأسـمـر حُجبت سُمـرته   لا صـــــوت يضجّ ولا يـزأر

هل هذا هو نهر النيل الذى قال فيه شوقى :

ومن السماء نزل أم فجرت من   عُليا الجنان جداولا تترقرق
أتت الدهور عليك مهدك مُترع   وحياضك الشُرُقُ الشهّية دُفّق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا   والأرض تغرقها فيحيى المغرق

ان الاعتداءات على نهر النيل فاقت كل الحدود .

هل ستوجد قوة بنّاءة متحضرة واعية تعيد الى النيل كرامته ؟ ان الله قادر على كل شئ .

الفهـــرس

رقم الايداع ٩٥/٨٧٨١
الترقيم الدولى 977-03-9804-7



المؤلف

دكتور مصطفى أمين الرفاعى

- أستاذ جراحة المسالك البولية بكلية طب الاسكندرية .
- رئيس قسم جراحة المسالك البولية ورئيس جمعية جراحى المسالك البولية المصرية سابقاً .
- عضو جمعية المسالك البولية العالمية والأمريكية وجمعية التحكم فى التبول العالمية وجمعية الطب والقانون المصرية .
- عمل مستشاراً لمستشفى السلاح البحرى بالاسكندرية ومستشفيات التأمين الصحى .
- له دراسات أدبية ونُشرت له الصحف والمجلات مقالات فى الأدب والتاريخ .
- له أبحاث فى تاريخ الطب والحضارة الطبية الاسلامية .
- مراحله الدراسية : روضة أطفال المنصورة ، المنصورة الابتدائية ، المنصورة الثانوية ، الزقازيق الثانوية، كلية طب الاسكندرية .

هذا كتاب من الأدب العلمى . يصف فيه المؤلف الأحداث التى عاشها وشارك فيها فى مجالات متعددة خلال مدة تزيد على نصف قرن .

عمل بمستشفيات عديدة داخل وخارج مصر

وخرج منها بتجارب طبية وانسانية عميقة .

وسرد بكل أمانة الأحداث الاجتماعية والسياسية التى عاصرها ،

وتضحية الشعب المصرى عامة والطبقة المثقفة خاصة فى سبيل مصر .



١٠ ش الوردى كوم الدكة – ت : ٤٩١٦٥٩٧